سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴿١﴾ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴿٢﴾ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴿٣﴾ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴿٤﴾ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزئون ﴿٥﴾ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴿٦﴾ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴿٧﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴿٨﴾

سورة الأنعام مكية وآياتها خمس وستون ومائة آية، وقد نزلت هذه السورة كلها جملة واحدة غير مجزأة.

[١] بدأت هذه السورة بحمد الله تعالىٰ، وهناك خمس سور في القرآن بدأت بالحمد، وهي: هذه السورة، والفاتحة، والكهف، وسبأ، وفاطر، والألف واللام في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، لاستغراق جميع المحامد؛ واللَّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، لاختصاصه جل وعلا بالحمد، وأنه وحده الذي يستحق الحمد الكامل؛ فهو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الظلمات، أي: الليل والنهار، وذلك بخلق الشمس والقمر، ومع هذا الوضوح من الخلق والإبداع لهذه المخلوقات فإن الكفار يشركون مع الله غيره، ويساوون بينه سبحانه وبين الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا ترزق؛ فتنزه سبحانه عن الشبيه والمثيل.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق أبانا آدم عليه السلام من طين، وخلق نسله من بعده من ماء مهين، وتعهد الله برعايتهم في مراحل خلقهم، ثم بين سبحانه أنه كتب مدة محددة لنهاية أعمار الناس بعد أن عاشوا زمنًا معينًا مقدَّرًا في حياتهم الدنيا إذا لم يستعجل أحدهم نفسه؛ بأن يقتل نفسه بانتحارٍ وغيره، وهذا ما يُسمىٰ بالعمر الاختراعي، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، ثم بين سبحانه أنه كتب عمرًا آخر محددًا لا يعلمه إلا الله، يبدأ بموت الإنسان ويستمر حتىٰ يبعثهم الله من قبورهم؛ ليحاسبهم علىٰ أعمالهم، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، وبعد كل هذه الدلائل وهذه البراهين الواضحة فإنكم أيها المشركون تشكّون في قدرة الله علىٰ البعث بعد الموت.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الله المعبود بحق في السماوات وفي الأرض، وأنه العالم بالسر والجهر، ويعلم ما يكسب كل شخص من خير وشر، ثم يوم القيامة يجازي كلًّا بعمله.

[٤] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الكفار الجاحدين لدين الله ما تأتيهم من دلالة أو حجة واضحة تدل علىٰ وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ، أو صدق نبوته ﷺ؛ إلا تراهم لا يلقون لها بالًا ولا يستمعون لها؛ بل يتلقونها بالإعراض والسخرية والاستهزاء.

[٥] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المشركين جحدوا الحق الذي جاء به نبينا محمد ﷺ؛ فسوف يعلمون يوم القيامة – بعد أن يروا العذاب – أن ما كانوا يستهزؤون به هو الحق والصدق، وهذا تهديد ووعيد شديد لهؤلاء المكذبين المستهزئين.

[٦] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التحذير لأهل مكة: ألم تشاهدوا ياأهل مكة كم أهلك الله قبلكم من الأمم عبر عشرات القرون، وقد مكن الله لهم في الأرض ما لم يمكن لغيرهم من الأمم؟ وأعطاهم من النعيم ما لم يعط لغيرهم،؛ ومن ذلك أنه أرسل عليهم المطر متتابعًا وغزيرًا، وجعل الأنهار تجري من تحت بيوتهم، وسخر لهم الصناعات؛ حتىٰ عاشوا في نعيم ورفاهية، وبعد كل هذا التمكين وهذا النعيم أهلكهم الله ودمرهم؛ بسبب ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي وأعظمها الكفر والشرك بالله، ثم أخبر سبحانه أنه أنشأ بعد هذه الأقوام التي أهلكها ودمرها أقوامًا آخرين.

[٧] ثم أخبر جل وعلا بطلب بعض الكفار من النبي ﷺ أن ينزِّل عليهم القرآن مكتوبًا في أوراق ليلمسوه بأيديهم؛ وقد أوضح سبحانه طلبهم في آية أخرىٰ وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣]، لكن الله سبحانه عالم السر وأخفىٰ أخبر نبيه ﷺ أنهم لو نُزِّلَ عليهم الكتاب ولمسوه بأيديهم لقالوا: إن ما جئت به يامحمد هو سحر واضح بيّن لا شك فيه.

[٨] وأخبر جل وعلا أيضًا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزِّل عليهم مَلَكًا من السماء، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: حتىٰ لو أنزلنا يانبي الله عليهم ملكًا من السماء إجابة لطلبهم؛ لأصروا واستمروا علىٰ الكفر والضلال؛ وحينئذ سوف نهلكهم جميعًا ولا يُعْطَوْن فرصة للتوبة، وهذه سنة الله في الأمم السابقة إذا طلبوا معجزة ثم لم يؤمنوا فتنزل بهم العقوبة ويُستأصلون، والله سبحانه أراد بهذه الأمة أن تمثل الإسلام وتنشره في الأرض.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا
يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ
سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ
نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ
فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ
مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ
أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ
يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ
وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

[٩] ثم أخبر جل وعلا أنه لو جعل الرسول المرسل إليهم من الملائكة لجعله في صورة رجل من البشر حتىٰ يستطيعوا مجالسته والتحدث إليه إذ الحكمة تقتضي ذلك؛ لأنهم سوف تفزعهم رؤية الملك في صورته الحقيقية، ثم بين سبحانه حتىٰ لو أن هذا الملك جاءهم في صورة البشر لاشتبه الأمر عليهم كما اشتبهوا في أمر محمد ﷺ.

[١٠] يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ، ويخبره أن لا يحزن علىٰ تكذيب قومه له، فكما استهزأ بك وسخر منك يانبي الله قومك؛ فقد استهزأ الكفار بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم من قبلك؛ فكانت النتيجة أن الله أنزل بهم العذاب الشديد الذي أحاط بهم من كل مكان؛ بسبب استهزائهم وضلالهم وكفرهم.

[١١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المستهزئين من قومه: يامعشر المشركين سيروا في الأرض وانظروا واعتبروا كيف عاقب الله الأمم من قبلكم؛ فاحذروا وخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

ولا شك أن هذه سنة الله في الظالمين إذا استمروا في ظلمهم وشركهم وضلالهم.

[١٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المنكرين للبعث والنشور علىٰ سبيل التوبيخ: من الذي له ملك ما في السماوات والأرض؟ فإن أجابوك؛ وإلا فقل لهم: إن جميع ما في الكون لله رب العالمين؛ وكما أنكم تقرون أن لله ملك ما في السماوات والأرض؛ فيجب عليكم أن تعبدوه وتوحدوه؛ ثم أخبر سبحانه أنه أوجب علىٰ نفسه الرحمة التي وسعت كل شيء، ومن ذلك أنها وسعت العصاة والطائعين، ثم يمهل سبحانه وتعالىٰ الجميع ولا يعاجل العصاة بالهلاك لحكمة يعلمها جل في علاه، ثم يجمع الله الخلق جميعًا يوم القيامة الذي لا شك فيه، وفي ذلك اليوم سوف يخسر أولئك الظالمون الذين أصروا علىٰ الكفر والعناد والضلال.

[١٣] أخبر سبحانه وتعالىٰ أن له وحده جميع ما استقر وتحرك من المخلوقات من إنس وجن وملائكة وحيوانات؛ في أي وقت ليلًا كان أو نهارًا؛ فكل شيء تحت قهره وتدبيره؛ واعلموا أيها الناس أن الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم وتحركاتهم.

وهذه الآية تُعد من آيات الشفاء التي تُقرأ علىٰ السن أو الضرس الذي به ألم، أو الإنسان المصاب بالحمىٰ؛ وذلك بوضع الإصبع علىٰ مكان الألم ويقرأ هذه الآية عدة مرات حتىٰ يزول الألم وتذهب الحمىٰ.

[١٤] يخبر جل وعلا بطلب الكفار من النبي ﷺ أن يعبد معهم آلهتهم سنة، ثم يعبدون معه إلهه سنة؛ فأمره سبحانه أن يقول لهم علىٰ سبيل التوبيخ: كيف أتخذ وليًّا ونصيرًا غير الله الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهن، وهو الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَم؟! ثم أمره أن يقول لهم: اعلموا ياقومي أني أمرت أن أكون أول من خضع وانقاد لله بالعبودية، واسْتَسْلَمَ له بالألوهية، ونهاني أن أكون من المشركين الذين أشركوا مع الله غيره.

[١٥] وقل لهم أيها النبي أيضًا: إني أخاف إنْ عَصَيْتُ ربي، وخالفت أمره؛ أن يَنزل بي عذابٌ عظيم يوم القيامة.

وهذه الآية تردٌّ علىٰ أولئك الذين لا يعبدون الله إلا بالحب، ولا يخافون من النار، مثل رابعة العدوية وغيرها.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة فقد فاز برحمة الله ونجا من عذابه، وذلك هو الفوز البين العظيم الذي ليس بعده فوز.

[١٧] واعلموا أيها الناس أن من أصابه شيء من البلاء كمرض أو فقر أو غير ذلك؛ فليعلم أن هذا البلاء من الله، وأنه لا رافع لهذا البلاء إلا الله سبحانه وتعالىٰ، وأن من يصيبه الله بخير من صحة أو غنىٰ أو غير ذلك؛ فليعلم أنه لا راد ولا مانع لهذا الخير إلا الله سبحانه وتعالىٰ، لأنه جل في علاه وحده الضار والنافع، وأنه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا لا يمنع التداوي والأخذ بالأسباب لأنه سبحانه هو الذي خلق الأسباب وأمر بالأخذ بها.

[١٨] ثم بين جل وعلا كمال قدرته؛ فأخبر أنه الغالب فوق عباده؛ فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن؛ إلا بمشيئته تعالىٰ، ثم أخبر أنه الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه؛ الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيء من أمور عباده.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾
ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ
وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟
يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

[١٩] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل هؤلاء المشركين: أي شيء أعظم شهادة علىٰ صدق نبوتي أيها المشركون؟، فإن أجابوك وإلا فقل لهم: الله شهيد بيني وبينكم، ولا شك أن هذه أعظم شهادة؛ بل لا أحد أعظم وأصدق شهادة منه جل في علاه، واعلموا ياأهل مكة أن الله أوحىٰ إليَّ هذا القرآن ليكون نذيرًا لكم ولمن بلغه هذا القرآن منكم وممن بعدكم من غيركم، ثم قل لهم يارسول الله علىٰ سبيل التوبيخ: وبعد كل هذه الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة فإنكم تجعلون مع الله معبودات أخرىٰ!!، فأما أنا فأقول لكم: إنني لا أشهد علىٰ ما أقررتم به، وإنما أقول لكم: إنني أشهد أن الله سبحانه إله واحد، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وإنني بريء من كل ما تشركون به من هذه المعبودات.

[٢٠] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود والنصارىٰ الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، لأنه مذكور عندهم في التوراة والإنجيل بكل أوصافه؛ بل جاء فيهما أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولكنهم اتبعوا أهواءهم فأصروا علىٰ إنكار نبوته ﷺ؛ وبسبب هذا الإنكار وعدم الإيمان به ﷺ خسروا أنفسهم بإلقائها في النار والعياذ بالله.

[٢١] ثم بين جل وعلا أنه لا يوجد أحد أشد ظلمًا من أولئك الذين افتروا علىٰ الله الكذب فادّعوا أن له ولدًا، وأن له شريكًا، وأن له صاحبة، وغير ذلك من الافتراءات، وكذلك لا يوجد أحد أشد ظلمًا من أولئك الذين كذبوا ببراهين الله وأدلته التي أيد بها الأنبياء والمرسلين؛ فاعلموا أيها الناس أن هؤلاء لن يفوزوا بخير الدنيا ولا بنعيم الآخرة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بكذبهم وافترائهم علىٰ الله، وكذبهم بآيات الله.

[٢٢] ثم بين جل وعلا أنه سيجمع المشركين ومعبوداتهم يوم القيامة للحساب والجزاء، ثم يقول توبيخًا لهم: أين هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله زعمًا منكم أنها ستشفع لكم عند الله يوم القيامة؛ هلَّا أحضرتموهم أيها الكفار لتدفع عنكم العذاب؟

[٢٣] وبعد أن سمع المشركون هذا السؤال ورأوا بأم أعينهم يوم القيامة وما فيه من الحقائق، وغابت عنهم معبوداتهم التي كانوا يظنون أنها ستشفع لهم، وقعوا في حيرة، وأرادوا التخلص من هذا الموقف العصيب؛ فأقسموا بالله كاذبين أنهم ما كانوا مشركين لله في العبادة، ظنًّا منهم أن تبرأهم من هذه المعبودات سوف ينجيهم من عذاب الله.

[٢٤] ولهذا قال جل وعلا لنبيه ﷺ علىٰ سبيل التعجب: فتأمل يانبي الله كيف كذب هؤلاء المشركون علىٰ أنفسهم بقولهم: إنهم لم يكونوا مشركين؟، وتأمل أيضًا كيف غابت عنهم في ذلك اليوم معبوداتهم التي كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها؟.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء الكفار من يستمع إليك يانبي الله إذا قرأت القرآن، ولكن بسبب عنادهم وجحودهم، ورفضهم الحق، وإصرارهم علىٰ الكفر، ونهي الناس عن الإسلام؛ جعل الله علىٰ قلوبهم أغطية لكي لا يفهموه ولا يؤثر فيهم، وجعل في آذانهم صَمَمًا فلا ينتفعون به، ومهما رأوا من علامات تدل علىٰ صدق رسالتك فإنهم لا يؤمنون بها؛ وإذا جاؤوك مخاصمين لك في الدين يقول من كفر منهم: إن هذا إلا أحاديث وأساطير الأمم السابقة وليست من عند الله.

[٢٦] ثم بين جل وعلا أن من أساليب هؤلاء المجرمين في محاربة الإسلام أنهم ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ، ويحذرونهم منه، كما أنهم يُبعدون أنفسهم عنه لكي لا يستمعوا الشيء من الحق الذي جاء به، وما علموا أنهم بفعلهم هذا ما يهلكون إلا أنفسهم، ولكنهم لا يحسون بعاقبة فعلهم بسبب غبائهم وحماقتهم وكبريائهم.

[٢٧] ثم بين جل وعلا حال هؤلاء الكفار يوم القيامة حين يُحبسون علىٰ الصراط فوق النار، ويَرَوْنَ أصناف العذاب، حينئذ يتمنون أن يُردوا إلىٰ الدنيا، ويعملوا الأعمال الصالحة، ولا يُكَذِّبوا بآيات الله، ويكونوا من المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويتبعون شرعه، ولكن هيهات هيهات.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ
نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

[٢٨] واعلموا أيها الناس أن الأمر ليس كما قال هؤلاء المشركون من التمني للرجوع إلىٰ الدنيا للهداية والعمل الصالح؛ وإنما الأمر أنه ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفونه من صدق ما جاءت به الرسل، وظهر لهم ما كانوا يخفون من أعمالهم السيئة، ولو فُرض أنهم رُدُّوا إلىٰ الدنيا لعادوا إلىٰ ما نُهوا عنه من الإشراك بالله والكفر والعناد والتكذيب؛ لأنهم كاذبون في كل ما يدعون؛ ولأنه سبحانه يعلم في علمه السابق ما سيفعله هؤلاء لو عادوا إلىٰ الدنيا.
وفي هذا إثبات لعلم الله بما لم يكن لو كان كيف يكون.

[٢٩] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المشركين لو ردُّوا إلىٰ الدنيا لعادوا إلىٰ ما نهوا عنه، ولقالوا: ليس لنا حياة إلا هذه الدنيا التي نعيش فيها ونتمتع بخيراتها، وبعد الموت ليس هناك بعث ولا حساب، ولا شك أن هذا إنكار منهم للبعث.

[٣٠] ثم أخبر جل وعلا عن حال هؤلاء المشركين يوم القيامة يوم أن يقفوا أمام ربهم، فيقول لهم موبِّخًا ومقرِّعًا: أليس هذا بالحق أيها المشركون؟ أي: أليس هذا هو البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتشاهدونه الآن أمام أعينكم هو حق لا ريب فيه؟ فيقولون: بلىٰ وربنا إنه الحق، فيقول الله لهم: فما دام الأمر كذلك فذوقوا العذاب؛ بسبب كفركم وشرككم وضلالكم وإنكاركم لهذا الحق؛ بل تحريض الناس علىٰ إنكاره والكفر به.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين قد خابوا وخسروا؛ لأنهم كذَّبوا بيوم البعث وأنكروا الحساب والجزاء، وأنهم سوف يستمرون في كفرهم وضلالهم وتكذيبهم بالبعث حتىٰ إذا جاءتهم الساعة فجأة قالوا: يا ندامتنا علىٰ ما ضيعنا في حياتنا الدنيا من الطاعة والعمل الصالح، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المكذبين يحملون آثامهم وأوزارهم علىٰ ظهورهم يوم القيامة؛ فبئس ما يحملون من الأوزار والآثام.

[٣٢] واعلموا أيها الناس أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب ولهو باطل لا فائدة منه، وأنها لذة عابرة وستزول، أما الآخرة فهي خير للذين يخشون عذاب الله بأداء الطاعات واجتناب المعاصي، أفلا تعقلون أيها المشركون الضالون فَتُقَدِّمُوا نعيم الآخرة الدائم علىٰ نعيم الدنيا الزائل.

[٣٣] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ ويخبره أنه يعلم أن تكذيب قومه لنبوته ورسالته يسبب له الحزن والألم؛ فاصبر واحتسب فإنهم لا يكذبونك فيما تقول؛ بل يعلمون أن ما تقوله حق وصدق، ولكن بسبب استكبارهم وظلمهم فإنهم يجحدون الأدلة والبراهين التي تدل علىٰ صدق نبوتك ورسالتك.

[٣٤] واعلم يانبي الله أن كثيرًا من الرسل الذين بعثوا من قبلك كذبتهم أقوامهم، وأوذوا في سبيل الله؛ فصبروا علىٰ ذلك؛ فاصبر يانبي الله كما صبروا حتىٰ يأتيك نصرنا، واعلم أنه لا مُغَيِّر لوعد الله بنصر الصابرين، وأنه لابد من تحقيق ذلك، ثم اعلم أن ما أخبرناك به من قصص هؤلاء الرسل ما هو إلا تسلية لك، وتثبيت لفؤادك.

[٣٥] ثم بين جل وعلا أنه لا يمكن لهؤلاء المنكرين أن يؤمنوا بالله بسبب استكبارهم وحسدهم؛ لذا قال سبحانه لنبيه: وإن كان عظُم عليك يانبي الله صدودهم وإنكارهم فإن استطعت أن تفتح نفقًا في الأرض، أو تصنع درجًا يصعد بك إلىٰ السماء فتأتيهم بآية فافعل، ولكن اعلم أنك بشر لا تقدر علىٰ ذلك، وعلىٰ فرض أنك استطعت أن تفعل شيئًا من ذلك فاعلم أنه لن يفيد في هداية هؤلاء المشركين، ولو شاء الله هداية جميع البشر لحملهم جميعًا علىٰ الإيمان بما جئت به، ولكن اقتضت حكمته سبحانه أن يبقيهم علىٰ الضلال الذي اختاروه وأصروا عليه، فاحذر يانبي الله أن تكون من الذين لا يعرفون سنن الله في خلقه التي اقتضتها حكمته؛ حيث جعلهم مختارين.

* إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ
ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ
مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

[٣٦] واعلم يانبي الله أنه لا يستجيب لدعوة الحق إلا المقبلون الراغبون بالهدىٰ، الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر، وأما هؤلاء الكفار فإنهم لا يسمعون لأن قلوبهم معرضة؛ ولأن الحياة الحقيقية إنما تكون بالإسلام، ثم أخبر سبحانه أنه سيبعثهم يوم القيامة، ثم يرجعون إليه فيحاسبهم علىٰ أعمالهم السيئة.

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين قالوا علىٰ سبيل التعنت والاستكبار: هلّا أنزل الله علامة تدل علىٰ صدق هذا النبي، فقل لهم يانبي الله مجيبًا علىٰ تساؤلهم: إن الله قادر علىٰ أن ينزل عليكم ما تريدون، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون أن حكمة الله في إنزال الآيات تكون بمشيئته سبحانه وتعالىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١]، ثم لو جاءتهم المعجزات التي طلبوها ولم يؤمنوا بها لحلت بهم العقوبة التي تقضي عليهم، والله لا يريد ذلك.

[٣٨] ثم بين جل وعلا أن من أقوىٰ الأدلة علىٰ قدرته وحكمته أنه ما من دابة تدب في ظاهر الأرض وباطنها، أو طائر يطير بجناحيه في الهواء إلا خلقها الله جماعات تماثلكم، وأن لها حياةً ونظامًا يخصها، كما قال تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، ثم بين سبحانه أنه ما ترك في اللوح المحفوظ شيئًا إلا أثبته، وأن جميع هذه المخلوقات مرجعها إلىٰ الله وحده، ثم يجازي كلًّا بما عمل.

[٣٩] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار الذين لم يصدقوا بهذا القرآن العظيم مثلهم كمثل الصم الذين لا يسمعون ما ينفعهم وينجيهم، وكالبكم الذين لا يتكلمون، وفوق ذلك هم في ظلمات الكفر حائرون لا يهتدون إلىٰ طريق الاستقامة، ثم بين سبحانه أنه إذا أراد إضلال إنسان بسبب فساد قصده وإصراره علىٰ الفسوق يتركه وشأنه، وإذا أراد هدايته بسبب سلامة قصده يسّر له طريق الإيمان الواضح، وأن من شاء الضلال يسره الله له، ومن شاء الهداية أعانه الله، وكل يجازىٰ حسب كسبه.

[٤٠] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل هؤلاء المشركين فيقول لهم: أخبروني إذا رأيتم الهلاك وأحاطت بكم المخاطر وأتتكم الكوارث أو أتاكم يوم القيامة الذي لا شك فيه؛ فإلىٰ من تلجؤون، وبمن تستغيثون؛ لينقذكم ويدفع عنكم البلاء؟! أليس إلىٰ الله؟!؛ أم أنكم سوف تدعون هذه الأصنام والأحجار التي عبدتموها من دون الله إن كنتم صادقين في أنها سوف تنفعكم وتنقذكم.

[٤١] ثم أكد جل وعلا أن هؤلاء المشركين لن يدعوا إلا الله وحده فقال سبحانه: بل إنكم لا تتجهون بالدعاء أيها المشركون في حال الشدة إلا إلىٰ الله وحده؛ فيكشف عنكم البلاء الذي أصابكم إن شاء سبحانه فضلًا منه وكرمًا، وفي هذه الحال تنسون الذين جعلتموهم شركاء؛ لأنكم تعلمون أن الله هو القادر علىٰ كشف الضر، وليس آلهتكم.

[٤٢] يخبر جل وعلا أنه بعث رسلًا إلىٰ أمم كثيرة قبل أمتك يانبي الله؛ فكذبوهم؛ فعاقبهم سبحانه بالشدائد، وبما يضرهم في أبدانهم، لعلهم يرجعون إلىٰ الله فيؤمنوا به؛ حتىٰ ينقذوا أنفسهم من عذاب الله الأليم.

[٤٣] ثم بين سبحانه أن هذه الأمم لم تتعظ ولم تعتبر بما أصابها من المصائب والشدائد؛ فهلّا تذللوا إلىٰ الله وتابوا وأنابوا إليه حين جاءهم العذاب ليرفع عنهم البلاء؛ ولكنهم لم يتذللوا ولم يتوبوا؛ بل استمروا في كفرهم وضلالهم حتىٰ قست قلوبهم وصارت كالحجارة أو أشد قسوة، وزيَّن لهم الشيطان ما هم فيه من الضلال والأعمال السيئة التي هم عليها.

[٤٤] وبعد أن تركت هذه الأمم ما وُعظوا وخوفوا به من البأساء والضراء؛ ابتلاهم الله بالنعم؛ ففتح عليهم أبواب كل شيء استدراجًا لهم؛ حتىٰ إذا اطمأنوا وفرحوا بهذه النعم التي أُغدقت عليهم أخذهم الله بالعذاب فجأة؛ فإذا هم يائسون من كل خير.

وعبر بالنسيان مبالغة في ابتعادهم عن الخير، وبالإبلاس، أي: الانغماس في الضلال والشهوات.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

[٤٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أهلك هذه الأمم الكافرة واستأصلها عن بكرة أبيها بالعذاب الذي لم يبق منهم باقية؛ بسبب ظلمهم وكفرهم وضلالهم؛ فالثناء الكامل والشكر التام لله رب العالمين الذي نصر رسله وأولياءه، وأزال الظالمين المجرمين وأهلكهم.

[٤٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أخبروني لو أن الله أعماكم وأصمكم وطبع علىٰ قلوبكم، أي: سلب منكم أدوات المعرفة حتىٰ لا تعرفوا شيئًا، فهل هناك إله غير الله -كهذه الأصنام وهؤلاء الأولياء الذين تزعمون- يستطيع أن يرُدَّ عليكم ما سلبه منكم؟ وبعد هذا كله انظر يانبي الله كيف وضح الله لهم في القرآن الأدلة والبراهين الدالة علىٰ توحيد الله، ومع ذلك فهم يعرضون عنها.

[٤٧] وقل يا نبي الله لهؤلاء أيضًا: أخبروني إن حل بكم عذاب الله فجأة ليلًا ودون توقع، أو جاءكم في وضح النهار وأنتم تنظرون؛ فاعلموا أنه لا يُهلك بهذا العذاب إلا القوم الظالمون الذين صرفوا العبادة لغير الله تعالىٰ وكذّبوا رسله، أما لو عم العقاب والهلاك الجميع فإن المؤمنين يبعثون إلىٰ الجنة؛ فالعقاب الحق لا يكون إلا علىٰ الظالمين.

[٤٨] يخبر جل وعلا أن وظيفة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم للناس هي تبشير أهل الطاعة بالجنة، وإنذار أهل المعصية بالنار؛ فمن آمن بالله ورسله وعمل الأعمال الصالحة؛ فأولئك لا يخافون في الآخرة، ولا يحزنون علىٰ شيء فاتهم من نعيم الدنيا.

[٤٩] ثم بين عاقبة الكافرين فأخبر أن الذين كذّبوا بالأدلة والبراهين الواضحة التي تدل علىٰ صدق ما جاء به الرسل؛ فسوف يصيبهم العذاب بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله وإصراهم علىٰ الكفر والعناد.

[٥٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لا أقول لكم: إني أملك التصرف بما يملكه الله فأجيبكم إلىٰ ما تطلبون، ولا أدعي علم الغيب؛ لأن الله لم يطلعني عليه، ولا أقول لكم: إني ملك، وإنما أنا رسول من عند الله أتبع ما يوحي إليّ؛ وقل لهم أيضًا: فهل يستوي الكافر الأعمىٰ الذي عمي عن آيات الله تعالىٰ فلم يؤمن بها، والمؤمن الذي أبصر آيات الله فآمن بها؟ أفلا تتفكرون أيها الكفار في هذه الآيات؛ لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟.

[٥١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يحذِّر بهذا القرآن الذين يخافون أن يبعثهم الله ثم يجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء؛ حيث لا ناصر لهم ولا شفيع إلا بإذن الله؛ لعلهم يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٥٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يُبْعِدَ عن مجالسه المستضعفين من المؤمنين، الذين يعبدون ربهم دومًا ليلًا ونهارًا، يريدون بذلك وجه الله والدار الآخرة؛ واعلم أنك لست مسئولًا أمام الله عن شيء من أعمالهم، كما أنهم ليسوا مسئولين عن شيء من أعمالكم حتىٰ تطردهم؛ فإن فعلت وقمت بطردهم فسوف تكون من الظالمين.

وسبب نزول هذه الآية: أن صناديد كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ كيف تريد منا أن نستمع لدعوتك ونؤمن بما تدعو إليه، وأتباعك هم العبيد والضعفاء، كما قال قوم نوح لنبيهم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا
بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل
لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ
﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ * وَعِندَهُۥ
مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ
ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

[٥٣] يخبر جل وعلا أنه ابتلىٰ بعض الناس ببعض؛ فجعل هذا غنيًّا وذاك فقيرًا، وهذا شريفًا وذاك وضيعًا، وهذا قويًّا وذاك ضعيفًا، ولما كان الرسل يأتون لدعوة أقوامهم كان الذين يؤمنون بهم ويتبعونهم ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من أشراف الناس إلا القليل، مما جعل الأغنياء الشرفاء يقولون علىٰ سبيل الاستخفاف والاحتقار: أهؤلاء الصعاليك أراذل القوم هم الذين من الله عليهم بالإسلام من بيننا؟ فقال سبحانه ردًّا عليهم: أليس الله بأعلم بالذين يشكرون نعمته فيوفقهم إلىٰ الهداية، من الذين يكفرون به فيضلهم الله ويعمي أبصارهم.

[٥٤] ثم يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أنه إذا حضر مجالسه أولئك الصحابة الفقراء الذين يؤمنون بآيات الله إيمانًا حقيقيًّا؛ أن يقول لهم: تحية وسلامًا لكم أيها المؤمنون، وأبشروا بمغفرة الله ورحمته الواسعة؛ واعلموا أن الله ربكم كتب علىٰ نفسه الرحمة بعباده أن من اقترف ذنبًا بجهل منه -سواء كان مخطئًا أو متعمدًا عالمًا بالتحريم- ثم تاب بعد ذلك، واستمر علىٰ التوبة والعمل الصالح؛ فإن الله كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

[٥٥] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا كما بين في هذه السورة الأدلة والبراهين المتنوعة الدالة علىٰ كفر المشركين وضلالهم؛ فكذلك بين لكم سبحانه أمور الدين لكي يتضح لكم طريق المجرمين وسيرتهم في الظلم والاستكبار والكفر والحسد.

[٥٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل نهاني أن أعبد هذه الأوثان التي تعبدونها من دونه، وقل لهم أيضًا: ولن أتبع أهواءَكم في عبادتها لأنكم عبدتموها علىٰ سبيل الهوىٰ لا علىٰ سبيل الدليل والبرهان؛ ولو أني اتبعت أهواءَكم فيما تدعونني إليه فلن أكون من الذين سلكوا سبيل الهدىٰ والرشاد؛ بل سأكون من الضالين.

[٥٧] وقل يانبي الله لهؤلاء الذين يطلبون منك أن تتبع أهواءهم: اعلموا أيها المشركون إنني علىٰ شريعة واضحة منزَّلة من ربي، وأما أنتم فقد كذبتم بالله تعالىٰ، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، لأن الحكم لله وحده فهو الذي يقضي بيني وبينكم بالقضاء الحق، وهو خير الفاصلين الذين يفصلون بين الحقِّ والباطل.

[٥٨] وقل يانبي الله لهؤلاء الذين طلبوا منك أن تستعجل نزول العذاب الذي وعد الله به المشركين: واعلموا لو أن في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلونه لأنزلته عليكم غضبًا لربي، ولقضي الأمر بيني وبينكم، ولكنّ الذي يملك ذلك هو الله وحده، وهو سبحانه أعلم بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره.

[٥٩] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا عنده خزائن الغيب، ولا يعلم هذه الخزائن إلا هو، ومن ذلك: أنه يعلم جل في علاه كل ما في البر والبحر من الحيوانات والأشجار والرمال والحصىٰ والمعادن وغير ذلك، وما تسقط من ورقة إلاَّ ويعلم متىٰ سقطت وأين مكان سقوطها، ولا حبة تحت الأرض إلا ويعلم مكانها ونوعها ومتىٰ يكون إنباتها، ولا رطب وهو ما ينبت، ولا يابس وهو ما لا ينبت؛ إلَّا ويعلم سبحانه مكانه ووقت نباته وتفاصيل ذلك، واعلموا أن كل ذلك مثبت وواضح في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله الخلق.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ
أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ
هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ
ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن
فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ
بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ
مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

[٦٠] يخبر جل وعلا أنه وحده الذي يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل، ويعلم ما تكسبون بالنهار من حسنات وسيئات، ثم يوقظكم بالنهار لتبلغوا أجلكم المحدد لكم في اللوح المحفوظ، ثم مرجعكم يوم القيامة إلىٰ الله وحده؛ فيخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٦١] ثم يخبر جل وعلا أنه هو القاهر فوق عباده، أي: الذي قهر كل شيء، وخضع وذل لعظمته كل شيء، وهذه الفوقية فوقية مطلقة، تعني: علو الذات والقدر، علوًّا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالىٰ، ثم أخبر سبحانه أنه يرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها عليكم، ثم إذا انتهىٰ أجل الإنسان وحانت منيته فإن الملائكة بأمر من ملك الموت تَقْبِضُ روحه، وهم لا يُقصِّرون فيما يوكل إليهم من أعمال فيقومون بها حسب مراد الله.

[٦٢] ثم صرح جل وعلا أن مصير العباد إليه وحده بعد إحيائهم وبعثهم من قبورهم، فهو مولاهم الحق الذي يتولىٰ أمورهم، ثم يحكم سبحانه بينهم بحكمه العادل، وهو أسرع من يتولىٰ الحساب والجزاء في ذلك اليوم؛ لأنه جل في علاه لا يحتاج إلىٰ تفكير وبحث وروية وانشغال بحساب ونحو ذلك؛ فهو عالم ومحيط بكل ما يتعلق بخلقه، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[٦٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: من ينقذكم ويخلصكم من أهوال وشدائد البر والبحر؟ أليس هو الله الذي تلجؤون إليه وحده تدعونه علانية وسرًّا في خضوع ظاهر وباطن؟ قائلين: نقسم لك ياربنا لئن أنقذتنا من هذه الأهوال لنكونن من المقرين بفضلك، القائمين بشكرك وعبادتك وحدك.

[٦٤] وقل يانبي الله لهم أيضًا: إنكم تقرُّون وتعترفون أن الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه الأهوال وهذه الكروب، ومن كل الشدائد، ومع ذلك لا تفون بوعدكم، وتعودون للشرك مرة أخرىٰ؛ فتشركون مع الله في العبادة غيره.

[٦٥] وقل يانبي الله لهم أيضًا: اعلموا أن الله قادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم، أي: من السماء؛ كالرجم بالحجارة أو بالصواعق المحرقة أو بالريح المدمرة، أو يبعث عليكم عذابًا من تحت أرجلكم، أي: من الأرض؛ كالخسف والزلازل، أو يجعلكم فِرقًا وأحزابًا مختلفة الأهواء، ويذيق بعضكم بأس بعض بالقتل وغيره، فانظر يانبي الله: كيف نوع الله الحجج والبراهين الواضحة لهؤلاء المشركين لعلهم يتأملونها ويفهمون الحق، ويرجعون عمَّا هم فيه من الكفر والضلال.

[٦٦] واعلم يانبي الله أن غالبية قومك كذبوا بهذا القرآن المنزل عليك بالحق من عند ربك، فقل لهم يانبي الله: اعلموا ياقومي أنني لست مفوضًا لأمنعكم من الكفر والضلال، وإنما أنا منذر، وقد قمت بما أمرني الله به؛ فأبلغتم وأنذرتكم، ويوم القيامة يحكم الله بيننا بحكمه العادل، وكان هذا قبل أن يأمره سبحانه بقتال الكفار والمشركين.

[٦٧] واعلموا أيها المشركون أن لكل خبر عظيم وقتًا محدَّدًا يقع فيه، ونهاية يستقر فيها، ومن ذلك عذابكم، وسوف تعلمون سوء فعلكم عندما يحل بكم العذاب الأليم.

[٦٨] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: وإذا رأيت يا نبي الله الذين يسخرون أو يستهزؤون أو يكذبون بشيء من آيات القرآن فلا تجلس معهم، حتىٰ يتكلموا في حديث آخر، فإذا أنساك الشيطان هذا النهي وهذا التحذير وجلست معهم، ثم تذكرت بعد ذلك، فقم ولا تجلس مع هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم الكفر والمعاصي. والأمر له ﷺ هو أمر لأمته، والنهي عن الجلوس مع المستهزئين بآيات الله لمن لا يستطيع أن ينصحهم ويؤدبهم ويلزمهم باحترام شرع الله.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ
لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن
تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ
هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ
حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ
أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

[٦٩] ثم بين جل وعلا أنه لا شيء علىٰ المؤمنين الذين يخافون من حساب الله لهؤلاء المستهزئين بآيات الله، ما داموا قد تركوا مجالستهم، والواجب علىٰ المؤمنين أن يذكروا الخائضين في آيات الله وينصحوهم ويبينوا لهم خطورة ما هم عليه من السخرية والاستهزاء؛ فإذا لم يستجيبوا فعليهم أن يقوموا من عندهم؛ لأن القيام من عندهم قد يُشْعِرُهُم أنهم مُخْطِئُون، ويكون ذكرىٰ لهم لعلهم يخشون عذاب الله ويكفُّون عن باطلهم وضلالهم.

[٧٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يترك هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دين الله الحق لعبًا ولهوًا فيسخرون ويستهزؤون به، وقد خدعتهم شياطينهم والحياة الدنيا بزخرفها وبهرجها وتمسكوا بها، لأنك عندما تترك هؤلاء الساخرين سوف تتفرغ لتذكير الناس بهذا القرآن قبل أن تهلك نفوسهم بسبب ما كسبت من الذنوب والمعاصي، ثم لا تجد يوم القيامة أحدًا من دون الله يتولىٰ خلاصها، ولا شفيعًا يشفع لها فينجيها من عذاب النار، ولو بذلت كل ما تملك فداءً لها ولو كان ملء الأرض ذهبًا ما قبل منها، ولما نجت من عذاب النار، واعلم أن أولئك الذين أهلكهم الله بسبب ذنوبهم لا حجة لهم، ولهم شراب شديد الغليان، يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، وعذاب أليم موجع علىٰ كفرهم وضلالهم.

[٧١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ: هل يصح أيها الكفار أن نعبد غير الله ممن لا يملك جلب نفع، ولا دفع ضُرٍّ، وننتكس في الشرك والضلال بعد أن وفقنا الله إلىٰ الإيمان؛ ونكون كالذي ذهبت به الشياطين فألقته في صحراء قاحلة، وتركته تائهًا ضالًّا لا يدري أين يذهب، وله أصحاب يدعونه إلىٰ الطريق المستقيم يقولون له: ائتنا فلا يستجيب لهم، بسبب حيرته وضلاله، وقل لهؤلاء يانبي الله: اعلموا أن ما هدانا الله إليه من الإسلام هو الهدىٰ وحده، وأما ما تدعوننا إليه من عبادة الأصنام والأوثان فهي الكفر والضلال، وقد أمرنا الله جميعًا أن نستسلم له وحده لا شريك له، في ألوهيته وربوبيته وعبادته؛ لأنه رب كل شيء ومالكه والمستحق وحده للعبادة.

[٧٢] وأمرنا سبحانه أيضًا أن نقيم الصلاة ونداوم علىٰ أدائها علىٰ أكمل وجه من الخشوع والخضوع، وأن نخافه جل في علاه بفعل الطاعات وترك المنكرات، وقل لهم: أنكم ستُجمعون يوم القيامة إلىٰ الله وحده؛ ليحاسبكم علىٰ أعمالكم.

[٧٣] يخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق السماوات والأرض بالحق الذي اقتضته المشيئة الإلهية، ولم يخلقهما عبثًا، قال بعض المفسرين: خلق الله السماوات والأرض للدلالة علىٰ قدرته، وليُعْمَل فيهما بطاعته، وخلقهما ليبتلي عباده، ثم يجازي كلًّا بعمله، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وذلك ما عَلِمْنَا من الحكمة، وربما لله حِكَمٌ أخرىٰ لم نَعْلَم بها، ولم تصل إليها أفكارنا.

وقال الدكتور إبراهيم النابلسي: لن تستطيع أن تدرك كل حِكَم الله أو علمه؛ إلا إذا كان علمك كعلمه. وبكلامه هذا فقد أراحني جزاه الله خيرًا من أشياء كثيرة أزعجتني وأعياني الوصول إلىٰ حِكَمِهَا؛ سواءً في حكمة الخلق أو القدر؛ فالأمر لله أولًا وآخرًا.

ثم قال سبحانه: واذكر يانبي الله يوم القيامة حين يقول الله: (كن)؛ فيكون ما يريد كلمح البصر أو هو أقرب، واعلم أن قوله حق ووعده صدق، وله جل في علاه المُلك وحده يوم القيامة يوم أن ينفخ المَلَك في (القرن) النفخة الثانية التي يخرج بها الناس من قبورهم، وتعود الأرواح إلىٰ أجسادهم، وفي ذلك اليوم تنقطع كل الأملاك، ولا يبقىٰ إلا الله الملك الواحد القهار، الذي يعلم ما خفي عنكم وما تشاهدونه، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، الخبير بشئون خلقه يدبرها كيف يشاء.

ولا شك أن من كانت هذه صفاته كان هو المستحق للعبادة وحده سبحانه وتعالىٰ.

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ
أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ
٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ
قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ
أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ
فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١

[٧٤] واذكر يانبي الله لقومك مُحاجَّة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، يوم أن قال له علىٰ سبيل العتاب والتعجب: أتجعل ياأبتي هذه التماثيل المصنوعة من الحجارة آلهة تعبدها من دون الله؟! إني أراك وقومك الذين يشاركونك في هذه العبادة في بُعْدٍ واضح عن الطريق المستقيم.

[٧٥] وكما وفق الله إبراهيم عليه السلام للتوحيد الخالص، واستقباح ما كان عليه أبوه من عبادة الأصنام؛ أراه أيضًا مظاهر قدرته الموجبة لألوهيته في ملكوت السماوات والأرض، وما حوتا من عجائب المخلوقات؛ كالشَّمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب؛ وقد أراه الله تعالىٰ هذه الأشياء حتىٰ ينظر إليها نظر اعتبار مستدلًا بها علىٰ عظمة خالقها، وليكون من الراسخين في الإيمان.

[٧٦] يخبر جل وعلا عن المناظرة التي حدثت بين إبراهيم عليه السلام وقومه؛ فعندما أظلم الليل ورأىٰ عليه السلام كوكبًا من الكواكب مضيئًا في السماء قال لقومه: انظروا ياقومي هذا هو ربي!!، وذلك من باب التنزِّل مع القوم؛ فلما غاب هذا الكوكب واختفىٰ، قال: لا أحب هذا الإله الذي يذهب ويختفي.

[٧٧] ثم لما رأىٰ عليه السلام القمر طالعًا ليلة البدر ساطعًا بضوئه قال لقومه: انظروا ياقومي هذا هو ربي!!، فلما ذهب القمر واختفىٰ، قال: لئن لم يهدني ربي إلىٰ الحق وإلىٰ الصواب في توحيده لأكونن من القوم الضالين عن سواء السبيل، الذين يعبدون غيره سبحانه وتعالىٰ.

[٧٨] ثم لما رأىٰ عليه السلام الشمس ساطعة مضيئة قال لقومه: انظروا ياقومي هذا ربي هذا أكبر من الكوكب وأكبر من القمر!!، فلما ذهبت الشمس واختفت، قال حينها لقومه: ياقوم إنني برئ مما تشركون مع الله غيره في عبادته، وإنني بريء من هذه الأصنام والأحجار والكواكب والنجوم التي تعبدونها، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تحيي ولا تميت، ولا ترزق ولا تخلق؛ بل كلها مخلوقات تسير بأمر الله الواحد الأحد الذي لا يستحق العبادة أحد سواه.

وهذه الآيات التي وردت في إبراهيم عليه السلام ليس المقصود منها أنه عليه السلام كان شاكًّا في إلهية الله، ولا يدل فعله أنه كان يبحث عن الحق؛ فهو عالم عارف للحق، ولكن قومه كانوا يعبدون هذه الكواكب فجاراهم عليه السلام بقوله، لأنه يريد أن يثبت لهم أن آلهتهم التي يعبدونها وهي الكواكب أنها تغيب، وأن الذي يغيب لا يصلح أن يكون إلهًا، وأن الذي يستحق أن يُعبد هو الذي خلقها وخلق الكون، وهو الذي لا يأفل ولا يغيب، وهو الله جلَّ في علاه.

[٧٩] واعلموا ياقومي أنني قصدت بعبادتي وتوحيدي الله وحده لا شريك له، الذي أبدع في خلق السماوات والأرض؛ بل سوف أكون مؤمنًا موحدًا مائلًا عن كل دين باطل، ومتمسكًا بالدين الحق وهو دين الإسلام الذي أمر الله به، ثم أعلن عليه السلام براءته قائلًا: ثم اعلموا ياقومي أنني لست من المشركين الذين يعبدون مع الله آلهة أخرىٰ.

[٨٠] ثم بين سبحانه أن قومه جادلوه وهددوه وخاصموه بأن معبوداتهم قد تصيبه بسوء، ولكن إبراهيم عليه السلام قال لهم: إن الله هو الهادي الذي قد هداني، ولا أخاف من أصنامكم أن تصيبني بشيء، إلا إذا شاء الله وأراد شيئًا، فالأمر كله لله إنْ قدَّر علي شيئًا فذلك منه هو لا من آلهتكم.

[٨١] ثم قال عليه السلام لقومه علىٰ سبيل الإنكار والتعجب: وكيف أخاف ياقومي أصنامكم التي لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تعقل، وأنتم لا تخافون ربكم الحق الذي خلقكم، وقد أشركتم به أصنامًا ما أنزل الله عليكم في عبادتها حجة أو دليلًا؛ فمن أحق بالأمن والاطمئنان يوم القيامة: الموحِّدُ الذي يعبد الله وحده لا شريك له، أم المشرك الذي يعبد آلهة شتىٰ لا تسمع ولا تبصر؟ إن كان عندكم فهم وعلم بالبراهين والأدلة التي تميزون بها الشبه الباطلة.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا
مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ
وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟
بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

[٨٢] ثم بين جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعة، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ فهؤلاء وحدهم هم الأحق بالأمن والطمأنينة يوم القيامة، وهم وحدهم المهتدون إلىٰ طريق الحق والخير.

[٨٣] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الذي أعطىٰ إبراهيم عليه السلام تلك الحجة التي حاج بها قومه؛ فأظهر التوحيد وأبطل الشرك؛ وعلا عليهم، ثم بين سبحانه أنه يرفع من يشاء من عباده ويجعلهم درجات ومراتب في الدنيا والآخرة، إنه سبحانه حكيم في تدبير خلقه يضع الأمور في مواضعها المناسبة، عليم بجميع أحوالهم.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا أنه منَّ علىٰ إبراهيم عليه السلام فرزقه إسحاق ابنًا ويعقوب حفيدًا، ورزق سبحانه إسحق ويعقوب الهداية والاستقامة علىٰ طريقة أبيهم إبراهيم عليه السلام، ثم بين جل في علاه أنه هدىٰ نوحًا من قبل إبراهيم عليهما السلام، وأنه خلق من نسل إبراهيم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون عليهم السلام أجمعين، وكلهم علمهم الحكمة وأعطاهم النبوة، وكذلك يجزي سبحانه كل من أحسن وسار علىٰ طريقهم وعمل بعملهم.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا أيضًا أن ممن هدىٰ الله ووفق من نسل إبراهيم عليه السلام: زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس عليهم السلام، وكلهم آتاهم الله النبوة وجعلهم من الصالحين.

وقوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾، فيه إثبات أن الجدَّ لأمٍّ أبٌ، وقد احتج بهذه الآية العالِم الذي هدده الحجاج بالقتل إن لم يُثبت أن الحسين ابن رسول الله ﷺ.

[٨٦] ثم أخبر جل وعلا أيضًا أن ممن هدىٰ الله ووفق من نسل إبراهيم عليه السلام: إسماعيل واليسع ويونس عليهم السلام، أما لوطٌ عليه السلام فهو ابن أخيه أو ابن عمه، ثم بين سبحانه أنه جعلهم أنبياء وفضلهم علىٰ أهل زمانهم.

[٨٧] ثم أخبر جل وعلا أنه اصطفىٰ بعض آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم، ووفقهم إلىٰ طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه. ومن هذه الآيات وغيرها يتبين أن عدد الأنبياء المذكورين في القرآن خمسة وعشرون نبيًّا، ذُكر في هذه الآيات ثمانية عشر نبيًّا، والباقون وهم سبعة جاء ذكرهم في آيات متفرقة، وقد ذكرهم الشاعر بقوله:

في تلـك حُجَّتُنَـا منهـم ثمانيـة

مـن بعـدِ عشـرٍ ويبقىٰ سبعةٌ وهـم

إدريـسُ هـودٌ شعيبٌ صالحٌ وكـذا

ذو الكفـلِ آدمُ بالمختـارِ قـد خُتموا

وفي قوله: (في تلك حُجَّتُنَا): يشير إلىٰ الآية السابقة رقم (٨٣).

[٨٨] واعلموا أيها الناس أن ذلك الفضل والإنعام الذي منَّ الله به علىٰ أولئك الرسل هو هدىٰ الله، يهدي به من يشاء الله من عباده ممن يعلم الله فيهم الاستعداد للإيمان والصلاح، ثم بين سبحانه لو أن أحدًا من أولئك الرسل الذي ذكرهم الله أشرك به جل في علاه – علىٰ وجه الافتراض والاستبعاد – لأحبط الله عمله.

[٨٩] واعلموا أن أولئك الأنبياء والرسل المذكورين هم الذين أنزل الله عليهم الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف موسىٰ، وآتاهم العلم والفقه، وخصهم بالرسالة والنبوة؛ فإن يجحد بهذه الثلاثة مشركو مكة فقد أمر الله برعايتها والانتفاع بها قومًا آخرين يؤمنون بها وهم المهاجرون والأنصار، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة.

[٩٠] ثم اعلموا أيضًا أن أولئك الأنبياء والرسل المذكورون هم الذين هداهم الله ووفقهم إلىٰ الدين الحق وإلىٰ التوحيد؛ فعليك يانبي الله أن تتبع طريقهم وتسلك سبيلهم، وقل للمشركين من أهل مكة وغيرهم: إني لا أسألكم علىٰ تبليغ الرسالة والنبوة أجرًا؛ وما هذا القرآن الذي جئتكم به إلا موعظة وعبرة لجميع الخلق إنسهم وجنهم.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

[٩١] يخبر جل وعلا أن اليهود ما عظَّموا الله حقَّ عَظَمَتِهِ، وما وصفوه حقَّ صفته؛ حيث قالوا: ما أنزل الله من السماء كتابًا علىٰ أحد من البشر، فقل لهم يانبي الله: إذا كان الأمر كما تزعمون، فمن الذي أنزل التوراة التي جاء بها موسىٰ عليه السلام إلىٰ قومه لتكون نورًا وهداية للناس؟ ثم جعلتموه في قراطيس متفرقة، تبدون بعض ما تحبُّون وتكتمون كثيرًا مما جاء فيها، ومن ذلك كتمانكم صفة محمَّد ﷺ، وقد علَّمكم الله في التوراة ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من قبل ومع ذلك لَمْ تنتفعوا بها؛ بل بدَّلتم وحرفتم، ثم قل يانبي الله لهؤلاء الجاحدين مجيبًا لهم: اعلموا أن الله هو الذي أنزل جميع الكتب السماوية، وبعد ذلك اتركهم يستمروا في كفرهم وضلالهم عابثين كالصبيان.

وهذه الآية نزلت جوابًا لليهودي الذي قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

[٩٢] واعلموا أيها الناس أن هذا القرآن كتاب أنزله الله كما أنزل التوراة والإنجيل من قبل، وهو كتاب معجز كثير الخير، باق إلىٰ يوم القيامة، مصدق لما تقدمه من الكتب المنزلة، وقد أنزله الله ليخوِّف به أهل مكة ومن حولها من أهل أقطار الأرض من عذاب الله وبأسه، ثم بين سبحانه أن الذين يؤمنون بالآخرة إيمانًا حقيقيًّا يؤمنون بهذا القرآن، ويحافظون علىٰ أداء شعائر الإيمان كلها، ومنها الصلاة التي هي من أجلِّ العبادات وأهمها.

[٩٣] واعلموا أيها الناس أنه لا أحد أظلم وأفجر ممن اختلق علىٰ الله جل في علاه قولًا كذبًا، كمن يحلل ويحرم بدون دليل من الشرع، أو ادعىٰ أن الله أوحىٰ إليه بالرسالة أو النبوة، وهو لم يوحِ إليه بشيء، أو قال: إنني أستطيع أن آتي بقرآن يشبه القرآن الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، كما قال أحد كفار مكة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال:٣١].

ثم بين سبحانه مصير الظالمين المشركين فقال: ولو ترىٰ يانبي الله هؤلاء الظالمين وهم في سكرات الموت، وملائكة العذاب الموكلة في قبض أرواحهم تضربهم وتعذبهم حتىٰ تخرج أرواحهم وتقول لهم: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم علىٰ سبيل الإهانة والتعنيف، فلو رأيتهم يانبي الله وهم في هذه الحال لرأيت عجبًا، ثم تقول لهم الملائكة: اليوم سوف تلقون عذاب الذل والخزي والإهانة بسبب كذبكم وافترائكم علىٰ الله بغير الحق، وكنتم تستكبرون عن اتباع آيات الله والانقياد لرسله.

وهذه الآية قيل: إنها نزلت في مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللَّذَيْن ادَّعيا النبوة، وهي تصدق علىٰ كل من ادعىٰ النبوة أو قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله.

[٩٤] ثم يخبر جل وعلا عن حال المشركين عندما يعرضون للحساب، فيقول لهم سبحانه علىٰ سبيل التوبيخ: لقد بُعثتم أيها الكفار من قبوركم ثم جئتم إلينا فرادىٰ لا مال معكم ولا ولد ولا زوج ولا خدم ولا أصحاب، وقد تركتم وراءكم الدنيا بما فيها، وما نرىٰ معكم في الآخرة أوثانكم التي كنتم تعتقدون أنها ستشفع لكم، وتدَّعون أنهم شركاء مع الله في العبادة؛ فاعلموا أيها المشركون أن العلاقة التي كانت بينكم قد تقطعت وتشتت جمعكم، وذهب عنكم ما كنتم تزعمون في الدنيا من شفاعتها، وضاع ما بينكم وبينهم من المودة والصداقة؛ فإن اليوم يوم الجزاء والحساب، وكل سوف يحاسب وحده.

* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟
بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ
دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

[٩٥] يخبر جل وعلا أنه يشق الحب اليابس فيخرج منه النبات الأخضر اليانع المثمر، وأيضًا يشق النوىٰ اليابس فينبت منه النخلة التي تثمر أنواع الرطب اللذيذ، ثم أخبر سبحانه أنه يخرج الحي من الميت؛ ومن ذلك إخراج الإنسان أو الحيوان من النطفة الميتة، وكذلك يخرج الميت من الحي؛ ومن ذلك إخراج النطفة الميتة من الإنسان أو الحيوان؛ وهذا دليل علىٰ قدرة الله علىٰ خلق الأشياء المختلفة، والمقصود الحياة المثمرة والكاسبة، وإلا فالبذرة والحيوان المنوي فيهما حياة ناقصة، تكملها بالنسبة للحيوان المنوي نفخة الملك، وبالنسبة للنبات الماء، وكل ذلك بإذن الله، واعلموا أيها الناس أن الخالق لهذه الأشياء هو الله؛ فهو وحده القادر علىٰ فعل ذلك؛ فكيف تُصرفون عن الإيمان مع قيام الدليل والبرهان؟!.

[٩٦] واعلموا أن الله وحده هو الذي شق ضياء الصباح من ظلام الليل، وهو الذي جعل الليل مستقرًا وسكنًا، تسكن فيه المخلوقات من تعب النهار، وهو الذي جعل حركة الشمس والقمر تسير بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم ومعاملاتهم، وهذا كله من تدبير وتقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه وتدبير شئونهم.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لعباده هذه النجوم ليهتدوا بمواقعها في أسفارهم أثناء سيرهم في ظلمات البراري والبحار، واعلموا أن الله جل في علاه قد بيَّن الدلائل والبراهين الواضحة؛ ليتدبرها أهل العلم والمعرفة.

[٩٨] ثم أخبر جل وعلا أنه خلقكم من نفس واحدة، أي: خلقكم من صلب أبي البشر آدم عليه السلام؛ وجعل لكم مستقرًا في أرحام الأمهات، ومستودعًا في أصلاب الآباء، وقد وضح سبحانه كلَّ مراحل خلقكم وبيّن دلائل قدرته لقوم يفهمون ما يتلىٰ عليهم ويتدبرون معناه علىٰ الوجه الصحيح.

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل من السماء ماء المطر؛ فأخرج به نبات كل شيء؛ وأخرج من النبات شيئًا غَضًّا طريًّا، ثم أخرج من هذا الزرع الأخضر حبًّا كثيرًا بعضه فوق بعض، وأخرج من هذا الماء أيضًا أشجار النخيل التي تثمر الطلع - وهو الغلافُ الحافظ للقنْوِ - الذي تتدلىٰ منه عذوقُ الرطب الجميلة ذات الطعم اللذيذ، وأخرج من هذا الماء أيضًا البساتين التي تتكون من أنواع الأعناب الكثيرة، وأخرج من هذا الماء أيضًا أشجار الزيتون والرمان التي تتشابه في أوراقها وتختلفُ في ثمارِها؛ فانظروا أيها الناس نظر تفكر واعتبار في وقت طلوع هذه الثمار ووقت نضوجها وإيناعها، واعلموا أن في خلق هذه الزروع والثمار مع اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها؛ لدلائل وبراهين واضحة لقوم يؤمنون أن الذي أخرج هذا النبات من هذه البذور اليابسة الميتة قادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ.

[١٠٠] ثم أخبر جل وعلا أن المشركين جعلوا لله شركاء من الجن في عبادته؛ اعتقادًا منهم أنهم ينفعون ويضرون، مع أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلق الجن، كما أن هؤلاء المشركين كذبوا علىٰ الله تعالىٰ حين نسبوا له سبحانه البنين والبنات؛ فزعم النصارىٰ أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون وبعض العرب أن الملائكة بنات الله، وزعم اليهود أن عزيرًا ابن الله، وهذا كله جهل منهم وسفاهة؛ فتنزّه تعالىٰ وتقدس عمَّا يصفه به هؤلاء الضالون المجرمون.

قال بعض المفسرين: نزلت هذه الآية في المجوس الذين قالوا: إن الله خالق الخير، وإبليس خالق الشر، وهم الثنوية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[١٠١] ثم أخبر جل وعلا أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما علىٰ غير مثال سابق؛ فكيف يكون له ولد - كما يزعم هؤلاء الضالون - مع أنه لم تكن له زوجة؟!، ثم أخبر سبحانه أنه خلق جميع الأشياء، وهو عليم بكل ما يحدث في الكون، لا يخفىٰ عليه شيء من أمر خلقه؛ فالكل عبيده وتحت تصرفه.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

[١٠٢] واعلموا أيها الناس أن ذلكم الموصوف في الآيات السابقة بتلك الصفات الجليلة هو ربكم، لا معبود بحق سواه، خالق كل شيء مما كان ومما سيكون؛ فالواجب عليكم أن تخلصوا له العبادة لأنه هو وحده المستحق للعبادة، وهو سبحانه حفيظ ورقيب على عباده يدبر أمرهم ويتولى جميع شئونهم.

[١٠٣] يخبر جل وعلا أنه لا تدركه الأبصار مطلقًا في الدنيا لعدم قدرة أبصارنا على رؤيته، كما قال تعالى لموسى لما سأله رؤيته: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، أما في الآخرة فإننا نُخلق خلقًا آخر، وحينئذٍ يتفضل الله علينا برؤيته، ولكن من غير إدراك كامل لذاته، أما هو سبحانه، فإنه يدرك الأبصار وما تحت الأبصار وما فوقها، وما احتوته، لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه اللطيف بأوليائه الخبير بهم.

[١٠٤] واعلموا أيها الناس أنه قد جاءتكم دلائل وبراهين من الله جل في علاه واضحة بينة؛ تبصرون بها الهدى من الضلال، فمن انتفع بهذه الدلائل فقد نفع نفسه، ومن أعرض عنها فقد أضر بنفسه، ثم بين سبحانه بأن الرسول ﷺ لم يبعث رقيبًا عليكم يحفظ أعمالكم، وإنما وظيفته تبليغ رسالة ربه؛ فبلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده.

[١٠٥] وكما بين جل وعلا الأدلة الواضحة في مسائل التوحيد والنبوة واليوم الآخر وغير ذلك؛ فإنه بين الحُجج والبراهين في كل ما جهله هؤلاء الكفار، ومع ذلك فإنهم يقولون كذبًا وزورًا: لقد تعلمت يامحمد من كتب الماضين من أهل الكتاب، وجئت منها بهذا القرآن، ثم أخبر سبحانه أنه بيَّن ووضح هذا القرآن لمن هداهم الله، ولمن يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه.

[١٠٦] ثم يُسَلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ ويأمره أن يتبع ما أوحاه الله إليه من الأوامر والنواهي، وأخبره أنه وحده الإله المستحق للطاعة، وأمره أن لا يبالي بعناد المشركين الضالين، ولا يلتفت لأقوالهم و أفعالهم.

[١٠٧] ثم بين جل وعلا أنه قادر على أن يجعل جميع الناس مؤمنين لو أراد ذلك؛ بل قادر على أن يجعل جميع الإنس والجن كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، وكذلك قادر أن يوجههم إلى الإيمان ويحببهم فيه، ولكنه لحكمة بالغة جعلهم مختارين ليختاروا ما يحبون من الخير أو الشر الذي وُضِّح لهم، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: دلهم على طريق الهدى وضده؛ فمن سلك طريق الهدى زاده الله هدى، والذين في قلوبهم مرض وزيغ زادهم الله مما اشتهوا؛ مع أن الله لا يحب لعباده الكفر والضلال؛ لكن أعطى كلًّا مراده الذي أحبه وأصر عليه، ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه ﷺ فأخبره أنه لم يجعله رقيبًا على أعمال الناس، وأنه ليس بمكلف أن يقوم بحفظ أعمالهم وتدبير شئونهم.

[١٠٨] ثم نهى جل وعلا عن سب المعبودات عند من يعبدونها فقط؛ لأن ذلك يحملهم على الغضب فيسبوا معبودكم وهو الله سبحانه وتعالى جهلًا وسفهًا منهم، وذلك سدًّا للذريعة، وإلا فهي باطلة تستحق التحطيم والإزالة، ثم أخبر سبحانه أنه كما زين لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان جزاءً لامتناعهم عن قبول الهدى؛ فقد زين لكل أمة عملهم من الخير والشر، ثم يوم القيامة مرجعهم جميعًا إلى الله فيخبرهم بما كانوا يعملون في حياتهم الدنيا من خير أو شر، ثم يجازي كلًّا بعمله.

[١٠٩] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين حلفوا بالأيمان المغلظة لَئِنْ جاءهم محمد بعلامة خارقة من اقتراحهم فإنهم سوف يؤمنون بها؛ فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن هذه الآيات هي من عند الله، فهو وحده القادر عليها، وليس لي يد فيها، وأما أنتم أيها المؤمنون الذين تطمعون في إيمانهم فما يدريكم لعلهم إذا جاءتهم لا يؤمنون بها؟؛ فيكونون كقوم صالح عليه السلام؛ حيث طلبوا منه الناقة فلما حقق الله لهم مطلبهم كفروا به ثم عقروها. وأما الله سبحانه وتعالى فإنه يعلم أنهم لن يؤمنوا بها.

[١١٠] وبسبب إعراض هؤلاء المشركين عن دين الله فإنه سبحانه يحول بينهم وبين الإيمان؛ فلو جاءهم الله بالآيات التي اقترحوها فإنهم لن يؤمنوا بها أبدًا كما لم يؤمنوا بها أول مرة، ثم بين سبحانه أنه سوف يتركهم في هذه الحال في كفرهم وضلالهم الذي أُشربته قلوبهم، فرفضوا الهدى حتى صاروا متحيرين لا يهتدون إلى الحق والصواب؛ وحينئذٍ تحل بهم العقوبة، وهذه الآية توضح شيئًا من القدر.

* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي
حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ
بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا
مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

[١١١] يخبر جل وعلا عن كذب هؤلاء المشركين الذين أقسموا أنهم إذا رأوا الآيات فسوف يؤمنوا بها؛ فاعلم يانبي الله لو أن الله لم يقتصر علىٰ إنزال الآيات التي اقترحوها؛ بل أضاف إلىٰ ذلك فأنزل عليهم الملائكة فرأوهم عيانًا وشهدوا بصدقك، وأحيا لهم الموتىٰ فكلموهم وشهدوا لك بالصدق والنبوة، وكذلك لو جمع لهم جميع الخلائق وشهدوا بأنك علىٰ الحق، فلو فعل كل هذه الأشياء فإنهم لن يؤمنوا إلا أن يشاء الله؛ فقد شاء الله وجعلهم مختارين فاختاروا الضلال وأصروا علىٰ الكفر؛ ولو أنهم التمسوا من الله الهداية لوفقهم للهدىٰ، ولهذا قال الله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، ثم أخبر سبحانه أن أكثر هؤلاء الكفار يجهلون الحق الذي جئت به من عند الله، لأنهم أصموا آذانهم عن سماع الحق، استكبارًا واستغناءً بعقائدهم الباطلة، كما قال آل فرعون لموسىٰ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

ولا شك أن الله قادر علىٰ تحويلهم إلىٰ الهدىٰ لا يعجزه شيء عن ذلك، ولكنه جعلهم مختارين فثبتهم علىٰ ما اختاروا.

[١١٢] ثم سَلَّىٰ جل وعلا نبيه ﷺ وقال له: فكما ابتليناك يانبي الله بأعداء من المشركين فقد ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام من قبلك بأعداء مِن مردة الإنس وأعداء من مردة الجن، يزين بعضهم لبعض القول الباطل ويزخرفونه حتىٰ يجعلوه في أحسن صورة ليغتر به السامعون فيضلون عن سبيل الله، ولو شاء الله ما عادىٰ هؤلاء المجرمون أنبياءَهم ولكنها سنة الابتلاء التي يبتلي بها عباده المؤمنين لتمحيص قلوبهم، وليميز الخبيث من الطيب، ثم أمره أن يترك هؤلاء الضالين وما يفترون من الكفر والأقوال الباطلة.

[١١٣] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول ليغتر به السامعون، ولتميل إلىٰ ذلك الزخرف والغرور قلوب الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء؛ ليحبوه وليكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون، وهذا فيه تهديد للضُلَّال وتبصير للمؤمنين.

وفي هذه الآية بين سبحانه أن خطوات الشيطان في إضلال الناس تمر بمراحل ثلاث: فأولًا: الاستماع للشبهة، أخذًا من قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، وثانيًا: الرضىٰ بالشبهة واستحسانها، أخذًا من قوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، وثالثًا: اعتقاد الشبهة والعمل بها، أخذًا من قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

[١١٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أفغير الله أطلب حكمًا قاضيًا بيني وبينكم، وهو الذي أنزل إليك القرآن مبينًا فيه كل أمور الدين بالتفصيل؟ ثم بين سبحانه أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه منزل من عند الله وأنه مشتملٌ علىٰ الحق، كما بشرت كتبهم بذلك؛ فلا تكونن يامحمد أنت ومن اتبعك من الذين يشكّون في الحق بعد بيانه.

والمقصود: تحذير أمته ﷺ، وإلا فهو معصوم مما هو أقل من الشك.

[١١٥] واعلم يانبي الله أن كلمات ربك قد تمت صدقًا فيما أخبر، وعدلًا فيما قضىٰ وقدر؛ فلا مغير لحكمه، ولا مخلف لوعده، وهو السميع لتضرع أوليائه ولقول أعدائه، العليم بأحوالهم وما في قلوبهم، يعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

[١١٦] ولو فُرض يا نبي الله أنك أطعت أكثر أهل الأرض لأضلُّوك عن دين الله؛ لأنهم لا يسيرون إلا وراء الظنون والأوهام، ويتبعون الأهواء الشهوات، ولا يتكلمون إلا عن تخمين لا يُبنىٰ علىٰ برهان.

[١١٧] واعلم يانبي الله أن الله أعلم بمن ضل عن طريق الحق وخالف سبيل الهدىٰ والرشاد، وهو أيضًا أعلم بالمهتدين الذين اتبعوا صراط الله المستقيم، ثم إنه سبحانه سوف يجازي كل فريق بما كسب من الخير والشر؛ فالزم طريق الخير والهدىٰ وابتعد عن طريق الشر والضلال.

[١١٨] يأمر جل وعلا عباده أن يأكلوا من الذبائح التي ذُكر اسم الله تعالىٰ عليها عند ذبحها، والمقصود ما يذبح من البهائم التي لم يُحَرَّمْ أكلها؛ لأنها طعام حلال طيب، ما دام أنهم مؤمنون بالآيات التي ورد فيها بيان ما يحل وما يحرم من المآكل.

ويفهم من هذه الآية عدم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا
لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ
﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ
يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ
إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ
﴿١٢١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ
فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ
اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ
عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

[١١٩] وما دام أنكم مؤمنون بالله ورسوله فأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه؟!، في الوقت الذي بين فيه جل وعلا لكم كل ما حرم عليكم من المآكل؛ إلا ما ألجأتكم الضرورة إليه؛ كمن خاف علىٰ نفسه الهلاك من شدة الجوع فإن له أن يأكل مما حرم الله علىٰ قدر الضرورة، ثم بين سبحانه أن كثيرًا من الكفار يُضلون غيرهم فيحلون ويحرمون بغير علم اتباعًا لأهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة، وإن ربك يانبي الله هو أعلم بمن تجاوز حدوده، وهو الذي سيتولىٰ حسابه وجزاءه.

[١٢٠] ثم أمر جل وعلا عباده أن يتركوا جميع الذنوب والمعاصي، السرية والجهرية، واعلموا أن الذين يفعلون الإثم ظاهره وباطنه سيجزون بمقدار ما اقترفوا من سيئات وآثام.

[١٢١] ثم نهىٰ جل وعلا عن أكل الذبائح التي لم يُذكر اسم الله عليها عند الذبح، وبين سبحانه أن أكْلَهَا خروج عن الهدىٰ، واعلموا أن العتاة المفسدين من إبليس وأعوانه ليوسوسون في صدور من استولوا عليهم ليجادلوكم في تحليل أكل الميتة، وهذا نهي منه سبحانه وتعالىٰ عن الاستماع لشبهة الكفار الذين يقولون للمؤمنين: كيف تحرِّمون ما أمات الله وتأكلون ما ذبحتم أنتم؟!، وهذا هو إيحاء الشياطين لهم، ثم حذر سبحانه المؤمنين من طاعة هؤلاء المشركين في استحلال ما حرمه الله عليهم؛ فإن أطاعوهم فإنهم مشركون مثلهم.

[١٢٢] وهل يعقل أيها المؤمنون أن من كان ميتًا بالكفر والضلال، ثم أحياه الله جل في علاه بالهدىٰ والإيمان، وجعل له نورًا يبصر به الحق بين الناس، كمن يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة ليس بخارج منها، ثم بين سبحانه أنه كما زُيِّن للمؤمنين الإيمان فتمسكوا به فقد زُيِّن للكافرين عبادة الأصنام والأوثان جزاءً علىٰ رفضهم الهدىٰ.

[١٢٣] وكما جعل جل وعلا فساق مكة هم أكابرها؛ فكذلك جعل سبحانه فساق كل قرية أكابرها، يعني: رؤساءها ومترفيها؛ ليمكروا فيها بصد الناس عن الإيمان بالله وبرسله؛ وما يدري هؤلاء المجرمون أنهم ما يُهلكون إلا أنفسهم، وأن ضرر مكرهم يعود عليهم، ولكنهم لا يُحِسُّون بذلك؛ لأن الهوىٰ صدهم عن الهدىٰ، وحرصهم علىٰ الرئاسة والزعامة أطغاهم وجعلهم يحاربون الدعاة، وإلا فهم بشر كسائر البشر خلقوا علىٰ الفطرة.

[١٢٤] ثم أخبر جل وعلا عن لون من ألوان مكر هؤلاء المشركين؛ فقال سبحانه: وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة واضحة تدل علىٰ صدق رسالة محمد ﷺ؛ فإنهم لا يذعنون لها، ويقولون علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء: لن نؤمن برسالتك يامحمد حتىٰ يَنْزِلَ علينا الوحي كما يَنْزِلُ علىٰ الرسل، فرد سبحانه علىٰ هؤلاء الضالين مبينًا أنه جل في علاه أعلم بمن هو أهل للرسالة، ثم بين سبحانه أنه بسبب تكبرهم وعنادهم سوف يجازون بالمذلة والهوان، وسينالهم العذاب الشديد في الآخرة بسبب تصرفهم وتدبيرهم السيئ، وإضلالهم لغيرهم.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن
يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا
يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ
رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ
جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ
أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ
أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي
بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ
يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ
هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا
وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

[١٢٥] واعلموا أن من طلب الهداية من الله فإن الله يوفقه ويشرح صدره للإسلام والإيمان والتوحيد، ومن يُرد الاستمرار علىٰ الضلال ويصر علىٰ البقاء كافرًا فإن الله يَطبع علىٰ قلبه، ويجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد إلىٰ مكان مرتفع فيصاب بضيق في التنفس، وكذلك يجعل الله العذاب علىٰ الذين لا يؤمنون بالله ورسوله.

وهذه الآية يؤيد ما ذكرنا في تفسيرها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠]، وقوله ﷺ في الحديث القدسي: «**ياعبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**...إلخ»[1]؛ فالإرادة العليا هي إرادة الله؛ فمن التجأ إليه والتمس منه الهدىٰ هداه وشرح صدره، ومن ضل وأصر علىٰ الكفر تركه وما اختار لنفسه؛ بل طبع علىٰ قلبه، وهذا الطبع جزائيًّا لا ابتدائيًّا.

[١٢٦] واعلم يانبي الله أن هذا الدين الذي جاءك من رب العالمين هو دين الإسلام، وهو طريق ربك المستقيم الذي لا عوج فيه؛ ثم أخبر سبحانه أنه بيَّن ووضَّح الآيات والحجج والبراهين لقوم يتعظون ويتذكرون.

[١٢٧] ثم أخبر جل وعلا أن لأولئك الذين يتعظون ويتذكرون بالآيات والحجج والبراهين لهم عند ربهم دار السلام وهي الجنة، وهي مضمونة لهم حتىٰ يدخلوها وهم في ولاية الله ومحبته ونصرته، جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا.

[١٢٨] واذكر يانبي الله لأهل مكة حال الظالمين من الإنس والجن يوم أن يحشرهم الله جميعًا يوم القيامة ويقول لمردة الشياطين: يامعشر الشياطين لقد أضللتم كثيرًا من الإنس بإغوائهم وتزيين الشهوات لهم، وقال الذين أطاعوهم من الإنس في الدنيا: ربنا لقد استمتع الجن بطاعة الإنس وانقيادهم لهم، واستمتع الإنس بالشهوات التي زَيَّنَتْهَا لهم الشياطين، حتىٰ بلغنا يوم القيامة الذي جعلته موعدًا لنا، أو الموت الذي جعلته نهاية لحياتنا واستمتاعنا، فقال جل وعلا ردًّا عليهم: إن النار مصيركم ومنزلكم جميعًا خالدين فيها أبد الآبدين، إلا من شاء الله عدم خلوده من عصاة الموحدين؛ لأن العاصي الموحد سوف يكون مصيره إلىٰ الجنة بعد تطهيره من الذنوب والمعاصي، واعلم أن ربك حكيم في تدبير شئون عباده، عليم بأحوالهم.

[١٢٩] واعلم يانبي الله كما تمكن الجن من إغواء الإنس وإضلالهم فكذلك سلط سبحانه بعض الظالمين علىٰ بعض حتىٰ يُضِلَّ ويعذب بعضهم بسبب من اقترافهم للذنوب والمعاصي.

[١٣٠] يخبر جل وعلا أنه يقول يوم القيامة للمشركين من الإنس والجن علىٰ سبيل التوبيخ: يا أيها المشركون ألم يأتكم رسلٌ يخبرونكم بهذا الدين وهذا التوحيد، وهذه الآيات والدلالات الواضحة المشتملة علىٰ الأوامر والنواهي، ويحذرونكم لقاء الله يوم القيامة؟، فقالوا حينها: لقد شَهِدْنا علىٰ أنفسنا بأن الرسل قد بلغونا الدلائل والآيات فرفضنا الإيمان بالله وبرسله، وخدعتهم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها الفانية، وأقروا علىٰ أنفسهم أنهم كانوا جاحدين لهذه الآيات وللهدىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا
يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾
إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا
فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ
لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

[١٣١] واعلم يانبي الله أن ذلك الذي قصه الله عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم؛ سببه أن ربك لم يكن من سننه أن يهلك أهل القرىٰ بسبب ظلمهم وكفرهم وضلالهم وهم لا يعلمون الحق؛ بل لا بد أن يبيِّنَ لهم طريق الحق والهدىٰ وينذرهم به، ولذلك أنزل سبحانه الكتب وأرسل الرسل ليبينوا للناس هذا الحق؛ فإذا رفضوا حلَّ بهم الهلاك.

[١٣٢] واعلموا أن لكل عامل من الجن أو الإنس مراتب ومنازل في الآخرة بحسب أعمالهم في الدنيا من خير أو شر، فمن عمل الخير ارتقىٰ في درجات الجنة بحسب عمله ثوابًا له، ومن عمل الشر نزل في دركات النار بحسب عمله عقابًا له، واعلم يانبي الله أنت ومن معك من المؤمنين أن الله ليس بغافل عما كان يعمل هؤلاء المشركون.

[١٣٣] واعلم يانبي الله أن ربك جل وعلا غني عن جميع خلقه؛ فهو سبحانه يعطي من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب؛ وأنه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، ولو شاء سبحانه لأهلككم جميعًا وأتىٰ بخلق آخر أطوع منكم يخلفكم علىٰ هذه الأرض وذلك علىٰ الله يسير؛ ثم بين سبحانه أنه كما أذهب القرون الأولىٰ وأتىٰ بغيرهم، فكذلك هو قادر علىٰ إذهاب قومك يانبي الله والإتيانِ بغيرهم.

[١٣٤] واعلموا أيها الناس أن الذي أَنْذَرَكُمْ الله به من عقاب، وَبَشَّرَكُمْ به من ثواب آتٍ لا محالة، وأنكم لن تعجزوا ربكم هربًا من وعيده، أو خروجًا عن قدرته سبحانه.

[١٣٥] وقل يانبي الله لقومك الرافضين لدعوتك: استمروا علىٰ كفركم ومعاصيكم ما دمتم رفضتم الهدىٰ، فأما أنا فإني عامل ما في استطاعتي من الإيمان بالله وطاعته، وسوف تعلمون يوم القيامة عند نزول عذاب الله بكم مَنْ تكون له العاقبة المحمودة، والنعيم المقيم في الآخرة، وبهذه النتيجة يُعلم أن الأمر يُحمل علىٰ التهديد لهم، ثم أخبر سبحانه أنه لن يفوز برضوان الله ونعيم الجنة أولئك المتجاوزون لحدوده الذين أشركوا معه غيره.

[١٣٦] يخبر جل وعلا عن بعض خرافات المشركين التي تدل علىٰ سفاهة عقولهم وتفكيرهم، ومن ذلك: أنهم كانوا في الجاهلية يجعلون لله قِسْمًا مما خلق من الزروع والأنعام والثمار، ويجعلون لأوثانهم وسدنتها قِسْمًا، ويقولون: هذا القسم لله كذبًا وافتراءً، والقسم الآخر لأوثانهم ومن يقوم عليها من السدنة، فما كان لأوثانهم وسدنتها ينفق عليها وحدها، وما كان لله أوصلوه إلىٰ شركائهم من الأوثانِ بطرقهم الملتوية، وما سقط أو اختلط بالقسم المخصص لأوثانهم، فإنه يضاف للأوثان بحجة أن الله غني عنه؛ فبئس هذا الحكم الجائر؛ وهذه القسمة الظالمة؛ لأنهم بهذه القسمة جعلوا الأوثان نظراء لخالق الحرث والأنعام، تشاركه في ملكه ورزقه، مع أن الله وحده هو الخالق الرازق.

[١٣٧] ثم أخبر جل وعلا عن خرافة أخرىٰ من خرافات المشركين، فقال سبحانه: وكما أن الشياطين زينت للمشركين جعل نصيب لله ونصيب للأصنام من الحرث والأنعام؛ فقد زينت لكثير من الآباء قتل أولادهم خشية الفقر والحاجة، ووأد البنات خشية العار؛ وكل هذا من خدع الشياطين ليوقعوا الآباء في الهلاك بقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وليخلطوا عليهم دينهم فتلتبس عليهم الأمور فلا يميزون بين الحلال والحرام؛ ولو شاء الله أن لمنعهم من هذه الأفعال، ولكن اقتضت إرادته وحكمته سبحانه بأن جعلهم مختارين، ثم أمر نبيه ﷺ أن يتركهم وما اختاروا وتَقَوَّلُوا وافتروا وابتدعوا فكل مرتهن بعمله.

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً
فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟
وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ
مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ
كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

[١٣٨] ثم أخبر جل وعلا عن خرافة أخرىٰ من خرافات المشركين، حيث قالوا: هذه أنعام وزروع محرمة علينا لا يأكل منها إلا من نشاء من سدنة الأوثان والرجال فقط، أما النساء فلا يأكلون منها، بحسب زعمهم وافترائهم، وكذلك قالوا: هذه الإبل يحرم ركوبها والحمل عليها، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكذلك لا يذكرون اسم الله علىٰ بعض الإبل عند ذبحها لأوثانهم؛ بل يذكرون أسماء أوثانهم، ويزعمون أن الله أمرهم بهذه السفاهات وهذه الضلالات كذبًا وافتراءً عليه، ثم أخبر سبحانه أنهم سوف يلقون جزاءهم بما كانوا يفترون علىٰ الله الكذب.

[١٣٩] ثم أخبر جل وعلا عن خرافة أخرىٰ من خرافات المشركين؛ حيث خصصوا الأجنة التي بطون هذه الأنعام المحرمة وهي البحائر والسوائب لذكورهم فقط، أي: لا يأكل من لحومها ولا يشرب من ألبانها إلا الرجال فقط، وحرَّموه علىٰ إناثهم، وذلك في حال وَلَدَتْ مولودًا حيًّا، أما إذا وَلَدَتْ مولودًا ميتًا فيشترك في أكله الذكور والإناث، ثم بين سبحانه أنه سيجزيهم عذابًا أليمًا علىٰ قولهم الكذب علىٰ الله؛ لأنهم ادعوا أن هذا التحريم مِن الله جل في علاه، واعلموا أن الله حكيم في تدبيره، عليم بهم وبما يفعلون.

[١٤٠] ثم أقسم جل وعلا بأن من فعل هذه الخرافات من قتلهم لأولادهم بسبب خفة عقولهم وجهلهم، وتحريم بعض ما رزقهم الله من الطيبات، كل ذلك كذبًا وافتراءً علىٰ الله؛ حيث ادعوا أن الله أمرهم بهذه الخرافات؛ فقد خابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد خسروا أولادهم بقتلهم وهم يعلمون أن الرازق هو الله، وأما في الآخرة فينتظرهم عذاب الله الأليم، ثم أخبر سبحانه أنهم ضلوا عن الطريق المستقيم، ولم يكونوا مهتدين؛ بل كانوا بعيدين كل البعد عن الهدىٰ والرشاد.

[١٤١] وبعد أن بين جل وعلا جملة من ضلالات وخرافات العرب في الجاهلية؛ أخبر سبحانه أنه هو الذي أبدع وخلق لعباده أنواعًا من النعم لكي يعبد وحده لا شريك له، ومن ذلك أنه خلق لكم حدائق متنوعة، منها ما يُغرس ويُرفع علىٰ دعائم ويتمدد حتىٰ يصبح عريشًا كالأعناب، ومنها ما لا يقوم علىٰ دعائم ويتمدد علىٰ وجه الأرض، كما أنه خلق أشجار النخيل وغيرها من الأشجار التي تُخْرِجُ ثمارًا لذيذة مختلفة في اللون والطعم والشكل والرائحة، كما خلق أشجار الزيتون والرمان المتشابهة في منظرها والمختلفة في ثمرها وطعمها، ثم أمر سبحانه أن نأكل من هذه الثمار اليانعة إذا أثمرت، وأن نؤدي حقها يوم حصادها من الزكاة المفروضة عليها، ثم نهىٰ سبحانه عن الإسراف في الأكل من هذه الثمار لأن الإسراف في الأكل يضر بصحة الإنسان، وأخبر أنه لا يحب المسرفين المتجاوزين حدود الله في الأكل والإنفاق في غير محله.

وقد أكد سبحانه في هذه الآية وفي آية الأنعام رقم (٩٩) السابقة علىٰ (الزيتون والرمان)، لأنهما متشابهان في الأوراق والأغصان ولا تكاد أن تفرق بينهما، لكنهما مختلفان في الثمار، فثمرة الزيتون تختلف في الشكل والطعم اختلافًا كبيرًا معروفًا عن ثمرة الرمان، فسبحان الله الخالق الذي خضعت لعظمته السماوات والأرض ومن فيهن.

وذكر أيضًا في هذه الآية الجنات لشكر الله والاستمتاع بأكل نعمه وأداء زكاة الثمار والزروع. أما ذكر الجنات في آية الأنعام رقم (٩٩) السابقة فقد ساقها سبحانه للاعتبار؛ حيث إن بعض الشجر يشبه الآخر وبينهما اختلاف كثير في الثمار؛ حيث قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

[١٤٢] ثم بين جل وعلا أنه خلق لكم الأنعام؛ فمنها ما لا يصلح إلا لحمل الأثقال كالمتاع والأرزاق، ومنها ما لا يصلح للحمل عليه لصغره وضعفه، ويصلح فقط للأكل، ثم أمر سبحانه بالأكل مما أُحِلَّ لكم من الأنعام والثمار والزروع التي جعلها الله رزقًا لكم، ونهىٰ سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان في تحريم ما أحل الله؛ لأنه عدو لكم ظاهر العداوة؛ فاحذروا كيده؛ فقد أخرج أبويكم آدم وحواء من الجنة.

ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ
قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ
أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣
وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ
أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤ قُل لَّآ أَجِدُ
فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ
فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ
فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا
كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ
بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦

[١٤٣] ثم فصَّل جل وعلا ما أجمله من الأنعام؛ فأخبر أنه خلق من الأنعام ثمانية أزواج للانتفاع بها؛ حيث خلق من كل نوع زوجين اثنين ذكرًا وأنثىٰ، فمن الضأن زوجين وهما الكبش والنعجة، ومن الماعز زوجين وهما التيس والعنز، ثم أمر سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل الإنكار والتوبيخ: هل حرم الله الذكر فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم الأنثيين فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم فقط الأجنة التي في أرحام هذين الزوجين؟ فأخبروني أيها المشركون بدليل واضح بيِّن يثبت أن الله حرم شيئًا من هذه الأنواع إن كنتم صادقين فيما تزعمون من التحليل والتحريم؛ لأن الادعاء بغير دليل صحيح فهو ادعاء باطل.

[١٤٤] ثم أخبر جل وعلا بالأزواج الأربعة الأخرىٰ وهي: من الإبل زوجين وهما الجمل والناقة، ومن البقر زوجين وهما الثور والبقرة؛ ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ والإنكار: هل حرم الله الذكر فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم الأنثىٰ فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم فقط الأجنة التي في أرحام هذين الزوجين؟ أم كنتم أيها المشركون حاضرين عندما وصَّاكم الله بهذا التحريم؟ فاعلموا أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن افترىٰ علىٰ الله الكذب؛ لأنه نسب إليه سبحانه تحريم ما لم يحرم؛ يريدون بذلك إضلال الناس عن الطريق المستقيم بغير علم ولا بينة ولا برهان، ثم بين سبحانه أنه لن يهدي القوم الظالمين إلىٰ طريق الحق بسبب ظلمهم واختيارهم طريق الكفر والضلال.

[١٤٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إني لا أجد فيما أُنزل علي من القرآن شيئًا مما تزعمون تحريمه؛ إلا إذا كان ميتة وهي التي ماتت بغير تذكية شرعية، أو دمًا سائلًا مصبوبًا، أو لحم خنزير لأنه نجس وقذر، أو كانت ذكاته خروجًا عن طاعة الله كالذي لا يذكر اسم الله عليه عند ذبحه؛ بل يذكر اسم صنم أو ولي ونحو ذلك، أو لم يذكر شيءٌ؛ ثم بين سبحانه أن من اضطر إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات بسبب جوع أو خوف الموت غير متجاوز قدر الضرورة فلا حرج عليه؛ واعلم يانبي الله أن ربك غفور رحيم، ومن رحمته أنه لا يؤاخذ من اضطر لأكل شيء من هذه المحرمات.

[١٤٦] ثم أخبر جل وعلا أنه حرم علىٰ اليهود كل ما لم يكن منفرج الأصابع من البهائم والطير - هكذا قال مجاهد -؛ فالبعير والنعامة ليست منفرجة الأصابع فهي لا تؤكل، أما الدجاج والعصافير فهي تؤكل لأنها منفرجة الأصابع، ثم أخبر سبحانه أنه حرم عليهم شحوم البقر والغنم، واستثنىٰ من ذلك الشحوم التي حملتها ظهورهما، أو التي توجد علىٰ الأمعاء، أو التي اختلطت بعظم، فإنه الله قد أحلها، واعلموا أيها الناس أن ذلك التحريم كان بسبب ظلمهم وبغيهم، واعلم يانبي الله بأنا صادقون فيما قلناه عنهم وفيما حرمنا عليهم.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟
لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ
فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ
مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ
تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟
بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم
مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

[١٤٧] يحذر جل وعلا اليهود وأمثالهم من المشركين من تكذيب النبي ﷺ؛ لأن تكذيبه يعتبر كفرًا بالله، ولذا قال سبحانه لنبيه ﷺ: فإن كذبوك يامحمد فيما أوحيته إليك من الهدىٰ، وفيما أخبرتهم من تحريم بعض الطيبات عليهم، فاستمر في دعوتهم وقل لهم: إن ربكم ذو رحمة واسعة، يمهل بها المكذبين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن إذا جاء عذاب الله فإنه لا يُردُّ مع سعة رحمته عن القوم المجرمين. وفي هذا ترهيب وتحذير لكل من خالف الرسول ﷺ؛ سواء من اليهود والنصارىٰ والمشركين الذين خالفوا دينه ولم يسلموا، أو من المسلمين الذين تركوا هديه ﷺ، واتبعوا هدي الكفار والمشركين والضالين والمنحرفين.

[١٤٨] ثم أخبر جل وعلا بما سوف يقوله المشركون لك يانبي الله؛ وهو أن الله قادر علىٰ منعهم هم وآبائهم من الوقوع في الشرك وتحريم ما أحل الله، وهذا كلام حقٌّ؛ فالله لا يعجزه شيء، ولكنهم رتبوا علىٰ ذلك؛ حيث إنه لم يمنعهم فهو إذًا راضٍ بفعلهم، والحق أنه جل وعلا جعلهم مختارين؛ فَلَوْ مَنَعَهُمْ لكانوا غير مختارين؛ وقد كذَّبهم الله في ظنهم أنه راضٍ عن فعلهم، وأخبر أنها شبهة قديمة أثارها الكفار من قبلهم، وكذبوا بها دعوة رسلهم، واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم حتىٰ أنزل الله بهم بأسه وعذابه الشديد، ولهذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: هل عندكم حجة أو برهان من الله تدل علىٰ صحة وصدق قولكم فتظهروه لنا؟، ثم بين سبحانه بأن أقاويلهم هذه ما هي إلا مجرد ظنون فاسدة، وأكاذيب وافتراءات باطلة.

[١٤٩] وبعد أن عجز هؤلاء المشركون عن الإتيان بأي دليل علىٰ صدق مزاعمهم؛ أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها المشركون أن لله وحده الحُجَّة البالغة والبينة الواضحة علىٰ الناس جميعًا؛ حيث لا حجة لأحد عليه؛ وحجته تعالىٰ تقطع كل المعاذير، وتزيل سائر الشكوك؛ ولو شاء سبحانه لجعل الناس جميعًا مجبورين علىٰ الهدىٰ مثل الملائكة، وهو قادر سبحانه علىٰ ذلك، ولكن حكمته اقتضت غير هذا.

[١٥٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: أيها المشركون أحضروا لي أنصاركم الذين يشهدون لكم علىٰ صدق ما تزعمون من تحريم الله لبعض هذه الأمور، ثم أمره إن شهدوا بذلك فلا يصدقهم لأنهم كاذبون في دعواهم، وأمره أن لا يتبع أهواءهم؛ لأنهم كذبوا بالقرآن، وأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، وأنهم يساوون الله بمعبوداتهم وأوثانهم الباطلة.

[١٥١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: أيها المشركون تعالوا أقرأ عليكم ما حرم ربكم، ثم سرد ﷺ عليهم جملة من المحرمات التي اتفقت عليها جميع الشرائع، ومن ذلك:

١- أن لا يشركوا مع الله أحدًا في العبادة.

٢- وأن يحسنوا إلىٰ الوالدين، ولا يسيئوا إليهما.

٣- وأن لا يقتلوا أولادهم بسبب الفقر، أو الخوف من المستقبل؛ فالله رازقكم ورازقهم.

٤- وأن لا يقربوا الفواحش؛ سواء كانت علانية أو كانت سرِّيَّةً.

٥- وأن لا يقتلوا أحدًا من الناس؛ إلا من قتل شخصًا فإنه يقتل به، أو قَتْل من ارتد عن الإسلام، أو قَتْل الزاني المحصن بالرجم حتىٰ الموت، واعلموا أيها الناس أن هذه الوصايا هي وصية من الله لكم لعلكم تتدبرون.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

[١٥٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يخبرهم بجملة أخرىٰ من الوصايا، ومن ذلك:

١- أن لا يقربوا مال اليتيم إلا بما يُصْلِحُ ماله ويثمره وينميه، ويجب المحافظة علىٰ ماله حتىٰ يصل سن البلوغ ويكون راشدًا، ولا بأس أن يأكلوا منه بالمعروف إن احتاجوا إلىٰ ذلك؛ بحيث يكون علىٰ قدر عملهم في تنميته، ومن كان غنيًّا فليستعفف.

واليتيم هو الذي مات أبوه قبل سن البلوغ.

٢- وأن يتموا الكيل والميزان بالعدل بأن يتم وزنه من غير نقص، واعلموا أن الله لا يكلف نفسًا إلا طاقتها؛ فالتكاليف مأمور بها الإنسان حسب وسعه وطاقته.

٣- وإذا حكموا بين الناس، أو أرادوا أداء شهادة؛ فليحكموا بينهم بالعدل، ويؤدوا الشهادة علىٰ وجهها الصحيح، حتىٰ لو كان المحكوم عليه أو المشهود ضده من أقرب الناس إليكم.

٤- وأن يوفوا بالعهود التي عاهدوا بها الله، أو عاهدوا بها الناس، فالوفاء بالعهود من سمة أهل الإيمان.

واعلموا أيها الناس أن هذه الوصايا هي وصية من الله لكم لعلكم تتذكرون.

[١٥٣] ثم جاءت الوصية الأخيرة وهي:

٥- أن لا يحيدوا عن الطريق المستقيم الموصل إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة؛ بل عليهم أن يتبعوه، ولا يتبعوا الطرق الباطلة التي نهىٰ الله عنها حتىٰ لا يتفرَّقوا ويبتعدوا عن طريق الله المستقيم.

واعلموا أيها الناس أن هذه الوصايا هي وصية من الله لكم لعلكم تتقون عذابه في الآخرة.

وهذه الوصايا العشر - المذكورة في هذه الآية والتي قبلها - وردت في جميع الكتب السماوية؛ لأن كل الفطر تقبلها وترضىٰ بها، ولا ترفضها إلا النفوس الدنيئة التي ابتعدت عن شرع الله.

[١٥٤] يخبر جل وعلا أنه هو الذي أعطىٰ موسىٰ التوراة تمامًا لنعمته عليه وعلىٰ المحسنين من أهل ملته، وفيها تفصيل لجميع أحكام دينهم، وإرشاد لهم علىٰ الطريق المستقيم، وسبب لنيل رضوان الله ورحمته، لعلهم يؤمنون بيوم البعث، ويصدقون بثواب الله وعقابه فيعملون من أجل ذلك.

[١٥٥] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن الذي أنزله إليك هو كتاب الله كثير البركة وكثير النفع والخير؛ فعليك أن تأمر الناس أن يتبعوه ويحذروا من مخالفته، وأن يتقوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، لعلهم يُرحمون به فينجون من عذاب الله.

[١٥٦] واعلموا أن الله جل وعلا أنزل القرآن وبعث الرسل لكي لا يقول أحد يوم القيامة لم يأتنا رسول، ولم ينزل علينا كتاب، وإنما أنزل الكتاب علىٰ الذين من قبلنا وهم اليهود والنصارىٰ، وقد كنا جاهلين عن قراءة كتبهم حيث لم تكن باللغة العربية التي نجيدها، فكان إنزال القرآن باللغة العربية حجة عليهم.

[١٥٧] ثم بين جل وعلا أيضًا أنه أنزل القرآن خشية أن يقولوا معتذرين: لو أُنزل علينا كتاب من السماء كما أُنزل علىٰ اليهود والنصارىٰ لكنَّا أهدىٰ منهم لسعة عقولنا وطيب استعدادنا، فرد الله اعتذارهم وأخبر أنه جاءهم بحجة وبرهان من الله، وهو هذا القرآن المعجز، رحمة لهم، وعلامة علىٰ صدق محمد ﷺ؛ فمن كذب بهذا القرآن ولم ينتفع به فليس هناك أحد أشد ظلمًا ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها ولم يؤمن بها، ثم بين سبحانه أنه سيجزي من يعرض عن هذا القرآن بأشد أنواع العذاب بسبب إعراضه وكفره وضلاله، ومنع الناس عن الإيمان به.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ
ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى
مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

[١٥٨] وبعد تكذيبكم أيها المشركون لنبينا محمد ﷺ، وتكذيبكم للقرآن؛ فماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون حتىٰ تأتيكم الملائكة لقبض أرواحكم؟ أو تنتظرون حتىٰ يأتي ربكم في موقف القيامة للفصل بين الخلائق؟ أو تنتظرون حتىٰ تأتي بعض علامات الساعة الكبرىٰ، والمراد بها هنا طلوع الشمس من مغربها؛ فاعلموا أنه يوم أن تأتي هذه العلامة لا ينفع حينئذ الإيمان لمن لم يؤمن من قبل، ولا تنفع التائب توبته، ولا يقبل من النفس المؤمنة عمل صالح لم تكن عملت به من قبل، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المكذبين: انتظروا أحد هذه الأمور لتعلموا الصادق منَّا من الكاذب، فإنا منتظرون معكم لنرىٰ ما يحل بكم من سوء العاقبة.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، الإتيان صفة من صفات الله التي وصف بها نفسه، وهو إتيان حقيقي من الله. وجلُّ الفرق الإسلامية كالأشاعرة والمعتزلة وغيرها يؤولون بعض صفات الله ومن ذلك صفة الإتيان، فيقولون: (يأتي ربك)، يعني: يأتي أمر ربك.

أما أهل السنة والجماعة فيثبتون كل صفة أثبتها الله لنفسه في كتابه، أو أثبتها له نبيه ﷺ، ومن ذلك صفة الإتيان، فيقولون: إن الله يأتي بذاته إتيانًا حقيقيًّا يليق بجلاله، لا نعرف كيفية إتيانه؛ كما لا نعرف كيفية ذاته جلَّ وعلا.

[١٥٩] واعلموا أن اليهود والنصارىٰ الذين فرَّقوا الدين الحق الصحيح، وأصبحوا بسبب ذلك فرقًا وأحزابًا، كل فرقة تعادي الأخرىٰ وتكفِّرُها، فإنك يانبي الله لست مثلهم، ولا مؤاخذًا بفعلهم، ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أن أمر هدايتهم لله وحده، وأما أنت فلا تملك هدايتهم، وسوف يخبرهم سبحانه يوم القيامة بما كانوا يفعلونه في الدنيا ويجازيهم عليه.

[١٦٠] ثم بين جل وعلا فضله الذي تفضل به علىٰ عباده المؤمنين فأخبر أنَّ من عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، ومن جاء بالخطيئة فجزاؤه مثلها دون زيادة عليها، ولا يُنقص من ثواب أعمالهم مثقال ذرة.

[١٦١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن ربي أرشدني إلىٰ الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دينُ الإسلام الحق، وهو دين إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، واعلموا أن إبراهيم ما كان من المشركين بالله.

وهذا يؤيد ما قاله بعض المفسرين في قول إبراهيم عن الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٨]، أنه كان تنزلًا مع الخصم للمناظرة.

[١٦٢-١٦٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن صلاتي، وذبحي، وجميع عباداتي، وكل حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح، كله خالص لوجه الله تعالىٰ، لا شريك له في الخلق، ولا في الإلهية، وقد أمرني ربي بذلك، بأن أعبده وحده ولا أشرك به شيئًا، وأنا أول المستسلمين لأمره.

[١٦٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أغير الله أبغي سيِّدًا وإلهًا وهو مالك كل شيء وسيده؟، واعلموا أنه لا تجني نفس ذنبًا إلا أُخذت به، ولا يحمل أحد جناية غيره، ثم بين سبحانه أن الخلق سوف يرجعون إلىٰ ربهم فيحاسبهم علىٰ أعمالهم، ويخبرهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

[١٦٥] يخبر جل وعلا أنه جعل آدم وذريته خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضًا في عمارتها، كما قال تعالىٰ عن آدم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]؛ وقال بعض المفسرين: إن الله جعل آدم وذريته خلفاء عنه في تنفيذ أحكامه ابتلاءً له، والآية تحتمل القولين، ثم بين سبحانه أنه رفع بعضكم فوق بعض في الشرف والرزق وغير ذلك؛ ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال كيف تشكرون تلك النعمة، ولكي تعمر الحياة؛ حيث يخدم بعضكم بعضًا لمصلحة الكل، واعلم يانبي الله أن ربك سريع العقاب لمن جحد وكفر، وأنه غفور رحيم لمن أطاعه وشكر نعمه.